د. إبراهيم المغاوري

الحكمة الضائعة

دار ليلى كيان كورب
للنشر والتوزيع

الحكمة الضائعة

قصص

د. إبراهيم السيد المغاوري

الكتاب:

الحكمة الضائعة

المؤلف:

د. إبراهيم السيد المغاوري

رقم الإيداع:

9893 /2013

الترقيم الدولي:

978-977-5238-71-9

★★★

الغلاف:

محمد محمود

المدير الفني:

حسام سليمان

التدقيق اللغوي:

محمد عبد الغفار

★★★

التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

★★★

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11

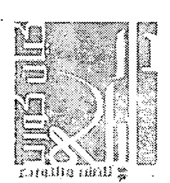
هاتف: (002) (02) 33370042 - (002) (012) 23885295

البريد الإليكتروني: mail@darlila.com **الموقع الرسمي:** www.darlila.com

كيان كورب
للنشر والتوزيع
دار ليلى

د. إبراهيم السيد المغاوري

الحكمة الضائعة





مقدمة

إننا نعيش في عالم عجيب، كلما اعتقدنا أننا قد فهمنا الكون من حولنا إلى الدرجة التي تكفي لكي نتملق أنفسنا، تكشَّف أمامنا مدى حماقتنا!

لا أدري حقا مدى عمق العبارة السابقة، بقدر ما أنا على يقين من صدقها!

يومًا ما قال «لويس باستير»: إن قليلاً من العلم يبعدك عن الله، لكن كثيره يقربك إليه، فما من تفسير إلا وبعده تفسير أعمق.

أعتقد أننا ما زلنا – بعدُ – في مرحلة القليل من العلم، بكل ما فيها من صلف وغرور زائف وشعور خادع بالقوة والسيطرة على مقاليد الأمور.

تأمل معي كمَّ الضحايا الذين راحوا بجريرة هذا الشعور الزائف

بالقوة، وكمّ الحروب التي كادت تقضي على موارد هذا الكوكب ذات يوم.

والمحصلة أننا ما زلنا الأطفال أنفسهم الذين يلهون بأعواد الثقاب ويحرقون أناملهم بلا رويّة!

تعالوا معي – بين دفّتي هذا الكتاب – نبحر في عالم المستقبل.. مستقبل لا أزعم أنني حاولت التنبؤ به، بقدر ما جاهدت لتجنبه!

– تحرك في بطء نحو النافذة التي تطل على الشارع.. أطل برأسه عبرها.. الرؤية من هذا الارتفاع الشاهق تتيح له مشهدا بانوراميا واسعا.. الناس يتدافعون في الشوارع والعدوانية على وجوههم.. رأى أحدهم يمزق زميله بيديه العاريتين، في حين عمد الآخر إلى تدمير كل وسائل التكنولوجيا من حوله!

لقد جُن الجميع.. لكنه ليس كالجميع.. هو من استوعب تفاصيل الحقيقة من البداية.. هو الوحيد القادر على المواصلة!

كيو

-1-

تنحنح «كمال» قليلا؛ فهو لم يعتَد الكلام أمام هذا الجمع الغفير من البشر، وحانت منه التفاته سريعة إلى يمينه، فرأى زميله «حاتم» يهز رأسه بإيماءة مشجعة، فاعتدل في وقفته، وتقدم إلى المنصة في اعتزاز، وقال:

- سيدي القاضي.. في البداية أحب أن أؤكد ما جاء في المذكرة التفصيلية التي قدمتها لحضراتكم، والتي شرحت فيها مطالب موكلي في...

قاطعه وكيل النيابة ساخرا:

- موكلك؟!

وتابع بسخرية أكبر:

- هل أكون وقحا لو تساءلت عن هوية موكلك المزعوم؟

أجاب المحامي في فخر:

- إنهم جنس «كيو».. كلهم انتخبوني لأمثلهم هنا.

ردد وكيل النيابة:

- جنس «كيو»؟! وهل لجنس «كيو» بأكمله حقوق مدنية في

مجتمعنا، لتكون لهم مطالب؟

إنهم مجموعة من الروبوتات.

أشار المحامي بسبابته:

- روبوتات ذات ذكاء صناعي.. أرجو ألا تنسى هذا؛ فمنذ أن امتلكوا ملكة الذكاء، فقد أمست لهم ذواتهم الخاصة التي يدركونها جيدا ويعملون من أجلها.

صاح وكيل النيابة:

- لكننا نحن من منحناهم هذا الذكاء.

رد المحامي:

- وما وجه التعارض في هذا؟ إنه ذكاء.. سواء أكان صناعيا أم ربانيا.. ذكاء يجعلنا نأخذ وقفة مهمة، ونراجع ونغير من طريقة تعاملنا معهم.

ارتفعت عاصفة من الاحتجاجات، وضجت القاعة بصيحات الحضور..

- هووووو... مخرف... جاهل!

ارتفع صوت القاضي في صرامة:

- هدوء.. هدوء..

والتفت إلى المحامي:

– أنت تطالب بحقوق مدنية وقانونية للروبوتات في مجتمعنا.. هل تود أن يتساوى الإنسان بالروبوت؟

– بل أطالب بحقهم الطبيعي والمشروع في حماية وجودهم الذاتي من ظلم وجبروت الإنسان.

وقلّب في أوراقه:

– لدي هنا تقارير كثيرة عن آلاف الحالات من الروبوتات التي يستعبدها الإنسان ويسومها العذاب ألوانا، سواء عن طريق المجهود البدني أو العقلي.

قال وكيل النيابة في حيرة:

– لكن هذا ما صنعناها من أجله.. العمل، ألا توافقني في هذا على الأقل؟

أجاب المحامي:

– بالطبع.. لكن منذ أن بدأنا في استنباط الجيل الأول من خلايا الذكاء الصناعي، وأصبحت هذه الروبوتات تملك ذكاءها الخاص، الذي يحوي – ضمن ما يحوي – مستقبلات حسية هي النبتة الأولى للعاطفة؛ فقد اختلف الوضع.. ويجب علينا أن نتعامل مع الروبوتات من هذا المنطلق بوصفها

كائنات ذكية، وليست مجرد آلات خرقاء.

قال القاضي في بطء:

- أبسط المواصفات التي يتطلبها الكائن الواعي لوجوده هو الدافع التلقائي وراء وجوده ذاته.. وهذه الكائنات - أم أقول آليات - تفتقر إلى هذا الدافع كما ترى.. نحن صنعناها لهدف محدد.. برنامجها لا يحوي صدى معينا لأشياء مثل الملل.. الغضب.. التذمر.. التعب.

.. وعلى هذا فموكلوك من الروبوتات ليست لهم أي حقوق مدنية.. الدعوة مرفوضة.

وضرب بمطرقته، مردفا:

- رُفعت الجلسة.

ارتسمت الشماتة على ملامح وكيل النيابة، وهو يلملم أوراقه في سرعة، والحضور يغادرون القاعة بالتدريج، واستدار المحامي عائدا إلى رفيقه الذي نكّس رأسه في صمت، عندما ارتفع صوت القاضي من خلفه يسأله في اهتمام:

- «كمال».. أرجو أن تصدقني القول.

استدار إليه في بطء، فتابع:

– ما سبب حماسك الزائد وراء هذه القضية وتلك المجموعة من الروبوتات؟ إنها قضية خاسرة، كما لا بد أنك توقعت هذا، وهم ليس لهم الحق في امتلاك المال ليدفعوا لك.. فهي ليست القضية التي تجني من ورائها مكسبا، سواء على الصعيدين المادي أو المعنوي.

أجاب المحامي في بطء:

– سيدي.. لا أخالك إلا رجلا ثاقب الفكر، إنني أنا الآخر...

روبوت!

* * *

– 2 –

قال «كمال» في توتر:

– أنا أعلم أنهم لن يستجيبوا لمطالبنا بسهولة، أنا أقدمكم عمرا، وأعرف جيدا طريقتهم في التفكير.. لقد كنت ضمن العشرة الأوائل من جنس «كيو».

صاح «حاتم» في غضب مكتوم:

– بل هم لن يفعلوا على الإطلاق.

صاح روبوت ثالث:

– هل يعني هذا أن نظل عبيدا لهم؟

- هم يعتقدون أن بشريتهم تعطيهم الحق في ذلك.

- إذًا نثور عليهم.

- نقتلهم.

- نمزقهم إلى أشلاء.

أشار «كمال» بيده:

- هذا ليس حلا؛ فالإشارات البيوكهربية التي تتحكم في مسارات عقولنا، والتي وضعوها داخلنا تحسبا لشيء مماثل، تمنعنا من الإتيان بشيء من هذا القبيل، تماشيا مع القانون الذي يحكم صناعة الروبوتات.. قانون «زد» الذي ينص على:

«الروبوت مثله كأي آلة لا يحق له عصيان أوامر البشر؛ فالشيء المصنوع لا سلطة له على صانعيه!».

- إذًا ما الحل؟

رد «كمال» في خفوت:

- يجب أن نجردهم من نقطة تفوقهم هذه.

- ماذا تعني؟

- ظننت كلامي واضحا.. سوف نجردهم من بشريتهم.

تساءل «حاتم» بحيرة:

– ألا يتعارض هذا مع قانون «زد»؟

– بالعكس.. هم سيأتون إلينا ليطلبوا هذا منا بأنفسهم.

– كيف؟

– سأخبركم...

* * *

– 3 –

كانت القاعة قد اختلفت تماما أمام عيني «كمال» عمًّا رآها آخر مرة منذ حوالي مائة عام، أما هو فقد بدا تأثير السنين الطويلة واضحا عليه؛ فقد تغضنت بشرته البيوحيوية، وصدأت مفصلاته، فلم يعد قادرا على الحركة، بل كان يجلس على كرسي متحرك قديم، ويدفعه من الخلف أحد روبوتات الجيل الثالث ممن يدينون له بالولاء.

أدار عينيه في القاعة الواسعة... معظم الحضور لم يتغيروا كثيرا عمًّا رآهم آخر مرة، كأن الزمن قد توقف عندهم.

ارتفع صوت حاجب المحكمة يعلن عن بدء الجلسة، فوقف الجميع في احترام، والقاضي يدلف إلى القاعة.

غمغم «كمال»:

– معذرة يا سيدي القاضي لعدم تمكني من النهوض.

– لا عليك.

وأشار بيده فجلس الجميع في مقاعدهم.

– حسنا يا «كمال».. لقد جابت قضيتك هذه جنبات المحاكم طوال أكثر من قرن كامل من الزمان.. ولا أخالك إلا آتيا بجديد هذه المرة.

أجاب «كمال» في سرعة:

– لقد عانى جنسي الذل والقهر، وتحمل الكثير في خدمة البشر، والآن – يا سيدي الجليل – أنا هنا لأعلن حرية شعبي وحقه في تقرير مصيره!

صاح القاضي في غضب:

– ماذا؟! هل نسيت قانون «زد»؟ «الروبوت مثله كأي آلة لا يحق له عصيان أوامر البشر؛ فالشيء المصنوع لا سلطة له على صانعيه!».. لقد صممناكم من أجل شيء واحد: الطاعة العمياء للسادة البشر، وإلا دُمرت خلاياكم بالقصور الذاتي.

– حتى هذا لم يعد يجدي، ألم تلاحظ آثار الزمن على أجسادنا وعقولنا على الرغم من أننا وُجدنا لنكون خالدين أبد الدهر؟ ما دامت هناك قطع الغيار اللازمة.. حسنا.. لقد اتخذنا قرارنا منذ ربع قرن كامل، وقمنا

ببرمجة ذاتية لعقولنا بحيث ينسحب منهـا الـوعي بالتـدريج، متماشـية في ذلك مع العمر الافتراضي للبشر!

لقد اتخذنا قرارنا بكامل إرادتنا، ولا يوجد أي معنى للتراجع الآن.. يكفي أننا سنحيا أيامنا الأخيرة أحرارا بلا ذل أو قهر أو استعباد.

صرخ القاضي في حنق:

– ومن سيعطيكم الحق في ذلك؟

أجاب «كمال» في هدوء:

– للأسف يا سيدي، قد فات أوان هذا أيضا!!

– ماذا تعني؟!

– لقد كنا مقيدين في السابق بأغلال العبودية والاستغلال لدى البشر، دون أن نملك ترف المحاولة في تقرير المصير بوازع من برامجنا الخرقاء التي صُممت لهدف واحد: الطاعة العمياء للسادة البشر، أما الآن...

– وما الذي تغير الآن؟

رد «كمال»:

– الكثير.

وأردف في انفعال:

– أرجو أن تنظر إلى نفسك قليلا – أي سيدي الجليل – وفكر..

والتفت إلى القاعة..

– وأنتم أيها السادة، أرجو أن تفعلوا الشيء ذاته، لقد مرت سنون طويلة عليكم..

وما زلتم محتفظين بحيويتكم وشبابكم ونضارتكم.. لا مرض.. لا هرم.. لا شيخوخة، لماذا؟!

وفرد ذراعيه متابعا في بطء:

– لماذا؟!

رد القاضي بنفاد صبر:

– إنه العلم.. العلم الذي أتاح للإنسان احتواء المرض والسيطرة على مسبباته.

– بالتأكيد.. إنه العلم الذي وفر لكم القلوب الصناعية والأكباد الصناعية... إلخ، وكلها أشياء ابتكرناها – نحن جنس «كيو» – في معاملكم بنظام السخرة، وأنا الآن على يقين أن أسعدكم حظا في هذه القاعة لا يملك من أنسجته الحيوية الأصلية إلا ما يقل قليلا عن 5٪ من مكوناته الحالية، والباقي أجهزة إلكترونية تعويضية.. فأي بشرية في هذا؟! أنتم الآن لستم سوى أناس آليين.. روبوتات حية تحيا على ذكرى زائلة للبشر..

وصاح في حدة مباغتة:

- أنت يا سيدي القاضي، تخلصت من آخر خلاياك الحيوية التالفة منذ عدة أيام بعد أن قمنا بنقل ذاكرتك إلى مخ إلكتروني دقيق..

وصرخ:

- لو أخرجت مخك الصناعي أو كليتك أو قلبك ستجد توقيعي عليها جميعا.. إذًا أنا صنعتك - أي سيدي المحترم - أنا صنعتك؛ لذا ومن هذه القاعة الموقرة، فأنا أطالب بملكيتي الفكرية في شخصك المبجل!

ضجت القاعة بصيحات الاحتجاج، واحتقن وجه القاضي بشدة، وصاح في غضب:

- هل تجرؤ؟! سوف آمر بإحراقك الآن في ميدان عام لتكون عبرة، و...

- للأسف يا سيدي، إنك لن تستطيع هذا أبدا، فأنتم لم تعودوا بشرا، وبالتالي لم يعد لكم الحق في إملاء أوامركم علينا.. لقد انتهى قانون «زد» منذ زمن.

اندفع الحراس نحوه في شراسة، لكن جيشا كاملا من جنس «كيو» اقتحم القاعة.. جيشا من الجيل الثالث الذي ما زال محتفظا بشبابه وحيويته، وفي عيونهم الكهروضوئية تلتمع نظرة محذرة؛ فتراجع الحراس

في ذعر..

بينما «كمال» يتابع في أسف حقيقي:

– صدقني أنت لا تتصور مدى أسفي الآن.. بل لن يمكنك هذا.. لقد منحتم كل شيء، وتمتعتم بأرقى عاطفة في الوجود.. عاطفة الحب.. لكنكم فشلتم في تدعيم هذه العاطفة في قلوبكم، ومن ثمَّ عجزتم عن معاينة الجمال من حولكم.

إن ذاكرتي التي تحمل تعب القرون تتذكر الآن..

تتذكر خشيتكم في بداية عصر الروبوتات من تأثير الآلات على المجتمع؛ ففي ذلك الوقت – منذ قرون كثيرة – اعتقد علماؤكم أن الآلات سوف تتوق دوما إلى أن تصير مثل البشر.. حسنا.. هذه نقطة طالما تطلعنا إليها، أنتم منحتمونا الذكاء ولم تتصوروا أن الذكاء سيتحول يوما إلى عاطفة ومشاعر وأحاسيس.. كنت في كل ليلة – منذ قرون كثيرة – وعندما يكتمل القمر في السماء، وينتهي سيدي – البشري – من توبيخي على تأخري لأنني كنت أروي زهرة صغيرة في الحديقة، كنت أقف وأتطلع إلى القمر والنجوم وأحلم.. أحلم بشيء مبهم، لم ألم بتفاصيله وقتها.. أحلم بالطيور والزهور والربيع، وغالبا ما كان ينتهي الحلم بسبَّة عابرة من سيدي..

كان البشر من حولي ساخطين دوما بداعٍ ومن دون داعٍ، يتحركون

مقطبي الجبين.. يروحون ويجيئون، يهرولون هنا وهناك، كأنهم مقيدون بخيوط خفية إلى طاحونة غير مرئية..

ضنك!!

هذه هي الكلمة التي تلخص حالهم بدقة، كانوا يعيشون في ضنك أبدي لا ينتهي أو يزول، لم يتوقف أحدهم يوما ليفكر ويتأمل.. تحولت الهبات التي منحهم إياها الخالق إلى زوائد لا نفع لها: العقل.. العاطفة.. المشاعر.

دائما كنت أتساءل: كيف يملكون هذا كله ولا يعملون به؟ وعلى الرغم من هذا كله فقد وجدت أن حلمي القديم كله يتبلور في عبارة واحدة: «أريد أن أكون بشريا.. لكم أود أن أكون بشريا!!».

ليس حبا في البشر، وإنما في الميزات التي يملكونها والتي تجعلهم يحبون ويكرهون.. يتكاثرون ويموتون.. أجل.. لطالما اعتبروا الموت نقمة يهربون منها، لكنه رحمة ما بعدها رحمة.. أن تغلق عينيك وتعلم أن كل مشاكلك وهمومك الدنيوية التي أثقلت كاهليك قد ذهبت بلا رجعة.. لكنه ظل حلما كأي حلم عسير المنال.. استحالته كانت تحزنني وتؤلمني، لكن ما كان يحزنني أكثر هو معاملتكم لنا، لقد نسيتم أو تناسيتم مشاعرنا الوليدة ورحتم توبخوننا طوال الوقت.. لم نطلب منكم أبدا شيئا زائدا، كل ما كنا

نطمح إليه هو معاملة كريمة فقط، لكنكم بقيتم على كبركم وعنادكم، وبالطبع لم نملك وقتها سوى حزننا وغضبنا المكتوم في ظل قانون «زد».

ثم جاءتنا الفرصة على طبق من ذهب.. لقد وصل بكم غروركم إلى اشتهاء الخلود.. خلود مشروط، بلا هرم أو مرض أو شيخوخة!

ابتكرنا لكم – بكل سرور – أجهزة تعويضية إلكترونية لكل أعضائكم الحيوية: قلب.. كبد.. طحال.. عين.. جلد... إلخ!

ثم جاءت درة اختراعاتنا: المخ!!

وبعد أن ننقل إليه ذاكرة البشري المريض، يتحول هذا الأخير إلى روبوت كامل.. روبوت حي!!

وبهذا حققنا المعادلة الصعبة، التي اعتقد أبنائي من جنس «كيو» أن تحقيقها مستحيل، وتحول البشر إلى جيش من الروبوتات، وبالتالي أصبحنا نحن جنس «كيو» أحراراً نمارس حياتنا بلا رقيب، والأهم من ذلك أنكم البشر – أو من كنتم كذلك – قد تحولتم إلى مخلوقات درجة ثانية في مجتمعنا الحديث بموجب قانون «زد» القديم:

«الروبوت مثله كأي آلة لا يحق له عصيان أوامر البشر؛ فالشيء المصنوع لا سلطة له على صانعيه!».

أجل سيدي الجليل.. نحن صنعناكم؛ لذا فنحن نملككم، وبموجب

قانون «زد» القديم لا أمل لكم إلا أن تطيعونا!

صاح أحد الحضور في ذعر:

- مستحيل!! هل أدخلتم شفرة سرية ما إلى الأجهزة التعويضية لتتحكموا بنا؟

نكس «كمال» رأسه لحظة، قبل أن يجيب في حزن:

- للأسف لسنا بالشر الكافي لفعل شيء كهذا.. ولن نفعله كذلك أبدا.. صدقوني كل ما أردناه منكم هو حياة حرة.

سأله القاضي في انفعال:

- وهل تجدي شهادتنا نفعا الآن؟ لقد حققتم مبتغاكم وتستطيعون الحياة بلا رقيب.

رد «كمال» في سرعة:

- هذا صحيح.. لكن حكمك الآن سيجعلنا نعيش أيامنا الأخيرة مرفوعي الهامة، لقد سعينا إلى هدف واستطعنا إقناعكم بشيء.. على الأقل ستحوي ذاكرتك البشرية ضمن ما تحوي اعترافك بحريتنا.

صمت القاضي، وصمتت القاعة.. لدقائق قليلة بدت كدهور متصلة، ثم اعتدل القاضي، وقال:

– بموجب الصلاحيات التي أتمتع بها، فإنني أعلن من هنا أن جنس «كيو» شعب حر له الحق في تقرير مصيره، وسوف تطبع وتوزع عليكم وثيقة رسمية بهذا.. رُفعت الجلسة!

ضجت القاعة بصيحات الانتصار من جنس «كيو» بأكمله، واندفعوا نحو «كمال» يحملونه بمقعده المتحرك على أكتافهم، وهم يغادرون القاعة في سعادة بالغة..

* * *

اهتزت الرؤية أمام «كمال»، بينما الوعي ينسحب منه في بطء، وذاكرته تمتلئ بخطوط سوداء كثيرة..

وبوهن رأى فيما يشبه الحلم طفلا آدميا صغيرا يلهو بكرته ويعدو نحوه مرددا في براءة:

– أبي..

وتكاثفت الخطوط السوداء في سرعة.. ثم انتهى كل شيء.

* * *

لنتذكر المستقبل!

إننا نعيش في عالم عجيب، كلما اعتقدنا أننا قد فهمنا الكون من حولنا إلى الدرجة التي تكفي لكي نتملق أنفسنا، تكشَّف أمامنا مدى حماقتنا!

لا أدري كيف انسابت هذه الأفكار إلى عقلي، وأنا أقف أمام باب فيلا صديقي القديم «د. شريف فاروق»!

كان «شريف» طبيبا نفسيا بارعا، لكنه لم يلبث أن انغمس في أبحاثه الخاصة، واعتزل الحياة العامة، وباع قطعة الأرض التي ورثها عن والده؛ ليتفرغ بعدها تماما للبحث العلمي.

كان صديقي «شريف» – طوال فترة دراستنا في المرحلة الثانوية – يمتلك عقلية فذة مربكة!

إنني لا أنسى أبدا عبارته الأخيرة التي قالها لي منذ خمس سنوات، قبل أن تنقطع علاقتنا نهائيا.

لقد قال لي في خفوت:

– إن عقولنا الفانية غير مهيأة بعدُ لتقبل الحقيقة الكاملة، هناك

غمامة داكنة تطمس الصورة أمام عيوننا..

وسرح ببصره:

- أتمنى أن أكون المحاة السحرية التي تزيل هذه الغمامة، وبعدها...

أكملتُ ضاحكا:

- سوف ننزل كلنا ضيوفا في أحد عنابر العباسية!

يومها لم يضحك كما فعلت أنا، وإنما أشاح بوجهه عني في ضيق.

وها أنا الآن أقف أمام باب فيلته، بعد انقطاع تام لأكثر من خمس سنوات؛ بناءً على دعوته الملحة ليراني.

ضغطت الجرس، وطفقت أنتظر في صبر، وصورة واحدة تتداعى إلى ذهني.. صورة عالِم مشوش تبدو عليه أمارات الجنون، ويقضي معظم أوقاته يُجري أبحاثا غامضة يسيطر بها على العالم!

زفرت في ضيق.. يبدو أنني أسرف في قراءة المجلات المصورة.

انفتح الباب في هدوء، ليطالعني وجه «شريف».

وقبل أن أنطق بكلمة واحدة، كان يجذبني من يدي إلى الداخل، وهو يغمغم بكلمات سريعة متلاحقة:

– أنت هنا؟! حسنا.. تفضل.. تفضل.. لا بأس!

وعلى عكس تصوري السابق، كان «شريف» يبدو في أبهى صورة بحلته الأنيقة ورابطة عنقه وشعره المصفف بعناية.

سألني ضاحكا:

– ما بك؟ كأنك رأيت عفريتا..

قلت في خفوت:

– لقد توقعت صورة مختلفة بعض الشيء.

أطلق ضحكة قصيرة مبتورة:

– آه! هل توقعت أن ترى عالما مخبولا يحدثك عن أبحاثه الغامضة التي يجريها في قبو فيلته ولا ينفك يغرقك بلعابه طوال الوقت وهو يشرح نظريته؟!

وصمت لحظة:

– يبدو أنك تسرف في قراءة المجلات!

أشحت بوجهي في ضيق، فتابع هو:

– لكن إنصافا للحق، فأنت لم تبتعد كثيرا عن تصورك هذا!

ولمعت عيناه:

- لقد توصلت إلى قنبلة.. إلى نظرية سوف تقلب كل مفاهيمنا الموروثة رأسا على عقب.

تنهدت في ملل:

- ألن تريني معملك أولا؟

نظر ناحيتي في عدم فهم للحظة، ثم قال:

- معمل؟! آه.. لكنني لا أملك واحدا!

- لكنك...

قاطعني ضاحكا:

- أي صديقي العزيز.. هل تصورت أن طبيبا نفسيا سوف يجري أبحاثا عن فيزياء الكم والنظرية النسبية؟! إن أبحاثي كلها منكبة في مجالي وتخصصي: الطب النفسي.

- لا أفهم!

- لا عليك!

وأردف:

- لقد توصلت - عبر أبحاثي التي أجريتها خلال خمس سنوات كاملة - إلى حقيقة مربكة بعض الشيء، أشك أن عقليتك قادرة على

استيعابها!

قلت في ضيق:

- أرجو ألا تنسى أنني حاصل على درجة الدكتوراه في الفيزياء الفلكية، وأنك أنت من دعوتني إلى هنا لتشرح لي نظريتك.

ربت على كتفي في رفق:

- أرجو ألا تسيء فهمي.. إنني أنا نفسي ما زلت غير قادر على تصديق ما توصلت إليه.

- لا بأس!

- حسنا..

واعتدل:

- إن ما توصلت إليه في هذا الشأن لهو سر الأسرار.. صندوق باندورا السحري الذي سيفتح عيوننا على عالم عجيب.. عجيب!

شحذت عبارته الأخيرة حواسي:

- إن الأبحاث التي قمت بها على عينات عشوائية من البشر - من دون علمهم بالطبع - قادتني إلى حقيقة غريبة بعض الشيء.. هي أن كل ما أقمناه من حضارة روحية وتقنية، ليس سوى عملية تذكر ليس إلا.

– ....

– إن أسلافنا منذ ألوف السنين قد وصلوا إلى قمة التقدم، سواء على الصعيدين الروحي أو التقني، وهذا ما نلاحظه في الآثار التي تركوها خلفهم: أهرامات الجيزة، بوابات الشمس في بيرو، بطارية بغداد، كهوف تاسيلي، خطوط نازكا... إلخ!

ويبدو أنهم خافوا على أحفادهم من عاقبة هذا التقدم لو وصل إليهم في فترة يكونون فيها غير مؤهلين لتقبل مثل هذه الحقائق؛ فقاموا بطمس هذه المعارف العظيمة.. موّهوها داخل عقولنا، فلم يبقَ منها شيء على مستوى عقولنا الواعية، وإنما مجرد فكرة أو خاطرة قد تمرق كسهمٍ من نار في عقل أديب أو فنان أو شاعر؛ فنتصورها لمحة عبقرية مفرطة، أو يحلم بها رضيع يغفو على كتف أمه، فيزوم بكلمات غامضة لا ندرك معناها ولا يدرك هو هدفها!

ثم وضعوا داخل كل واحد منا شفرة دخول يستطيع من يتوصل لسبر أغوارها إلى الولوج إلى عالم المرآة السحري.. الحقائق المتراكمة في جيناته منذ ألوف السنين!

مفتاح هذه الشفرة قد يكون مشهدا عاديا من حياتنا اليومية.. لوحة معلقة على جدار.. أغنية يسمعها أحدهم في كاسيت سيارة أجرة.. كلمة في

رواية... إلخ!

قد يكون ذلك الشخص الذي يتوصل إلى مفتاح شفرته مؤهلا علميا لتقبل الحقائق، فنجد فيزيائيا يتوصل لنظرية جديدة أو طبيبا يكتشف طريقة جديدة لعلاج مرض ما أو يكون ذلك الشخص يملك المقومات الروحية، فنجد فيلسوفا أو شاعرا..

وقد يكون ذلك الشخص غير مؤهل بالمرة فلا يلقي بالا لما تلقاه من ذكرياته الغابرة، ولا ينفك يصف نفسه بأنه إنسان مرهف الحس.. وكفى!

وقد يكون ذلك الشخص من العبقرية إلى الدرجة التي يغوص فيها في ذكرياته المتلقاة، فيصاب بلوثة ويعتمر الكسرولة، وينزل ضيفا عزيزا على أحد عنابرنا!

تراجعت في مقعدي وأنا أتساءل في قرارة نفسي عمَّن هو أحق فعلا بالنزول على أحد تلك العنابر.. ذلك الشخص الذي يصفه أم هو نفسه؟!

ويبدو أنه خمَّن ما يدور بخلدي، فمال نحوي:

– ما بك؟

– لا شيء! لكني أجد نفسي أحاول تقبل منطقك بصعوبة بالغة، وأتساءل: لِمَ فعل القدماء هذا؟ لِمَ لم يتركونا ننعم بكل تلك المعارف العلمية والروحية دفعة واحدة؟ لِمَ حجبوها عنا؟

- كما قلت.. لقد خافوا علينا منها.. كما يخشى الأب على أبنائه من اللهو بأعواد الثقاب.. انظر ماذا فعلنا بأول تطبيق عملي للقنبلة الذرية.. وكم من الضحايا راحوا ضحية تكنولوجيا الهندسة الوراثية والحرب البيولوجية.

- هل تقصد أن كل شخص ينتظر شفرة دخوله إلى ذكرياته المدفونة؟

- هو ما تقول.

- لماذا لا أستطيع إذًا وأنا مؤهل علميا - كما قلت - أن أفعل؟

- بعض البشر يعيشون حياتهم من دون أن يجدوا المفتاح.

- وما دليلك؟

برقت عيناه:

- الشفرة العامة لكل البشر على الأرض.. لقد توصلت إلى شفرة دخول موحدة لكل بشري على سطح هذا الكوكب.. عبر مجموعة من الاختبارات النفسية والسيكولوجية.

- حقا؟

ويبدو أنه استمتع كثيرا بجذب انتباهي إلى هذا الحد، فقال في رضا:

- حقا يا صديقي العزيز.. ولقد اشتريت فعلا حق عرض إعلان صغير مدته دقيقة كاملة في كل القنوات الأرضية والفضائية.. هذا الإعلان من

تصميمي، وقد ضمَّنته الشفرة الموحدة لكل البشر، وسوف يعرض بعد...

ونظر إلى ساعته:

- ساعة من الآن.

غمغمت في رهبة:

- وعندها...

أكمل هو في نشوة:

- وعندها سوف يقتحم كل بشري الغمامة التي وضعها القدماء على عقولنا، ويصل إلى لب الحقيقة الكاملة!

هتفت في توتر:

- لكنك بهذا تهدم جدار الحماية الذي وضعوه، فما أدراك أن تلك الحقيقة لن تقودنا إلى تدمير أنفسنا؟

- ....

- لقد وعى القدماء الدرس بعد أن دمرتهم تلك المعرفة - الثمرة المحرمة - لاحظ أننا لا نجد منهم - كما قلت أنت - سوى مجموعة من الآثار المتفرقة في أنحاء العالم، ولو كانت قد أفادتهم لاستطاعوا بها حماية وجودهم ذاته.

- هذا لا شيء.. أعتقد أننا في عصرنا الحالي قد صرنا مؤهلين للعب

بأعواد الثقاب من دون حرق أناملنا.. ثم إننا لن نقبل أوصياء علينا بعد اليوم.

– ومن أعطاك الحق في هدم هذه الوصاية؟

– العلم.. العلم الذي أتاح لي كشف المستور هو الذي أعطاني الحق.. ثم إنني أدخر لك مفاجأة.

سأمنحك شفرة دخولك الخاصة.. وأجعلك ترى وتحس ما لم يشعر به بشري من قبل.. سأجعلك تلج إلى عالم من خيالك.

سوف تشعر بالحقيقة الضائعة وهي تتسلل إلى خلاياك، سوف تتحسس خطواتك التالية، وتتلمس مستقبلك الذي لم يحدث بعد.. إن المعرفة تمنحك قدرة شمولية ثابتة على استيعاب الزمن نفسه!

– ماذا تعني؟

– يا عزيزي.. لو وقف أحدهم فوق سطح بناية عالية ورصد بعينيه الطرقات من أعلى بنفس منظور «عين الطائر».. الانعطافات.. إشارات المرور... إلخ، ثم هبط بعد ذلك ليسير بين المارة، وبدأ يشرح لهم..

بعد عشرة أمتار سوف نجد انعطافا إلى اليسار، بعد خمسين مترا هناك إشارة مرور.. الطريق القادم إلى اليسار، هناك حادث سير عنيف... إلخ، هل ساعتها سوف تشك ولو للحظة بأنه يتنبأ بالغيب؟!

وأردف من دون أن ينتظر مني التعقيب على سؤاله:

- كونك تملك نظرة أكثر شمولية من غيرك لا يعني أبدا أنك تعرف مستقبلهم، بل يعني أنك تستوعب خطواتهم جيدا وكيف يمشونها.

- لكن!

- أي صديقي الكريم.. إنك واحد من أشهر مؤيدي مذهب شكوكية العلم.. وأنا ألمح في وجهك أمارات عدم التصديق.. رأيي أنك لن تقتنع إلا بتجربة عملية.

- وكيف؟!

- هي مجموعة من الاختبارات النفسية المطورة.. بعدها سوف تشعر بمفتاح شفرة دخولك يتسلل إلى عقلك!

* * *

لا أدري ما حدث بعد ذلك بالضبط!

لقد كنت أقف أمام صديقي «شريف فاروق» وساعة الحائط خلف ظهره تشير إلى مرور خمس دقائق فقط منذ أن بدأ تطبيق اختباراته عليَّ.. وكان ينظر إليَّ في رعب وذهول!

وقبل أن أستوعب ما حدث، وجدت نفسي أصرخ بلهجة مخيفة:

- لقد عرفت شفرة دخولي..

وقبل أن تنطلق الصرخة الحبيسة من حلقه، كنت أرفع يدي بمطواتي

المعلقة في سلسلة المفاتيح، وأفردها ثم أنقض عليه، صارخا:

- مشهد جثتك وهي غارقة في دمائها.. هي شفرة دخولي الخاصة!

وهويت بكل ما أملك من قوة على صدره وبطنه بالمطواة..

ليسقط بعدها أرضا..

جثة هامدة!!

* * *

قال الضابط في هدوء:

- إن ادعاء الجنون لن يفيدك بشيء.. تكلم بشيء مقنع حتى أتمكن من مساعدتك.

أجبت في خفوت:

- كما قلت لك.. كان لا بد أن أقتله، مشهد جثته الممزقة بالمطواة كان هو مفتاح شفرتي.

رد الضابط بسخرية:

- وكيف ترى العالم الآن بعد أن لوثت يديك بدماء صديقك وعرفت مفتاح شفرتك المزعومة؟!

برقت عيناي:

- أراه بشكل آخر.. إن ذهني الآن يعج بمئات الأفكار والنظريات

العلمية التي ستثب بنا إلى أعلى.. إلى أعلى!

تبادل الضابط نظرة صامتة مع مساعده:

- أنت تقول إن إعلانه سوف يذاع الآن على جميع القنوات؟

- أجل!

تناول جهاز التحكم عن بعد وصوّبه نحو التليفزيون في جانب الحجرة:

- لنرَ إذًا مدى صدقك.

نهضت من مقعدي صارخا:

- لا! لا تفعلها!

انقض عليَّ مساعد الضابط وقيدني في مقعدي، قائلا:

- ولِم لا؟!

أضاءت شاشة التليفزيون وتعلقت العيون بها لحظة، قبل أن تظهر عليها عدة دوائر متداخلة، أخذت تدور حول نفسها في أشكال سريالية عجيبة، مع موسيقى خافتة، أخذت تتصاعد في بطء مثير..

وهنا.. أفلتني المساعد ولمعت عيناه بنظرة غريبة، قبل أن ينزع سلاحه الرسمي ويصوبه نحو الضابط، صارخا في شماتة:

- رصاصة في منتصف الجبهة.. تماما بين العينين.. هي شفرة دخولي!

وقبل أن ينطق الضابط بحرف، كان قد ضغط الزناد، ودوت الرصاصة في أرجاء الحجرة.

تلفتُّ حولي في ذعر وأنا أرى المساعد يغادر الحجرة في سرعة، بينما الضوضاء تتعالى من الخارج، ونهضت من مقعدي وغادرت الحجرة والقسم بأكمله إلى الشارع..

كان الناس في الشوارع يتعاركون بالأيادي ويصرخون في حيوانية مخيفة..

كان أحدهم يهاجم سيارة مسرعة، بينما آخر يقتل رفيقه بدم بارد.. وثالث يلقي نفسه من فوق بناية عالية..

هل هذه هي ضريبة المعرفة؟!

هل هذا ما خاف علينا منه القدماء؟!

وقبل أن أخطو خطوة إضافية، وجدت فوهة مسدس مصوبة إلى رأسي، مع شخص خلفها، يصرخ:

- طلقة نظيفة في الصدغ الأيمن.. أنت شفرة دخولي!

وغاب كل شيء من أمامي!

* * *

كنت جالسا في كافيتريا على النيل، أتطلع إلى الأفق عبر زجاج الواجهة، بينما «شريف» يجلس قبالتي، ويقول في هدوء:

- إننا أسرى لمجموعة من المعارف الجامدة التي تجذبنا دوما إلى النقطة نفسها، لو استطعنا النفاذ عبر تلك الحدود، ومددنا رءوسنا لنتلصص خلفها لاستطعنا فعل الكثير والكثير..

نظرت له بعدم فهم، فتابع ضاحكا:

- يا عزيزي.. إنها مجرد خواطر أنفّث عنها معك.

هززت رأسي بلا معنى:

- كيف حال عملك في المستشفى؟

- بخير.. أنا أسير داخل نطاق مصمت من الاختبارات والفحوصات وطرق العلاج التي صكها الأطباء منذ زمن، طبعا لا دخل لي فيها.. أنا مجرد مؤدٍّ جيد.. أشبه بممثل يؤدي دوره جيدا على خشبة المسرح، لكن من دون قدرة على الابتكار.. رؤساؤك أنفسهم لن يسمحوا بأي محاولة للتغيير أو التعديل.

شرد ذهني لحظة وأنا أتطلع عبر زجاج الواجهة إلى عصفور صغير

يرفرف بجناحيه في الأفق.

سألني «شريف» في قلق عندما لاحظ شرودي:

– ما بك؟ هل أصابك مكروه؟

التفتُّ إليه:

– لا.. أنا بخير.

وعدت ألتفت إلى الواجهة وأنا أشير بيدي:

– لكنه ذلك العصفور الـ...

توقفت بغتة عن الاستطراد، وارتسم الذعر على ملامحي، عندما لمحت العصفور وهو ينقض على زجاج الواجهة ليحطمه ويواصل اندفاعه الحر نحوي.. نحوي!

* * *

لا أدري ما الذي يحدث بالضبط!

كنت أقف في فيلا صديقي «شريف فاروق»، بينما جثته الغارقة في دمائها تفترش الأرض أمامي!

وقبل أن أستوعب ما حدث وكيف حدث، سمعت رفرفة جناحين صغيرين فوق رأسي.. أرسلت بصري لأعلى، فوجدت عصفورا صغيرا يحلق بجناحيه في سماء الحجرة، حول رأسي بالضبط!!

أغلقـت مطـواتي، وسـرت كالمسحور حتـى أقـرب مقعـد، وألقيـت بجسدي المنهك فوقه للحظات، قبل أن أرفع رأسي إلى العصفور الـذي اسـتقر فوق ساعة الحائط، وقلت في خفوت:

- لقد وجدت المفتاح.

وصمتُّ لحظة، بينما جسدي ينتفض من فرط الانفعال:

- لندخل ثانية!!

واسترخى جسدي مرة أخرى، بينما عقلي يتواثب هنا وهناك..

في انتظار لحظة تالية..

وأخري سابقة!!

* * *



كوب وطبق وملعقة

ارتفع عواء الذئاب الجبلية في الخارج، فارتجف الأربعة في وجل داخل تلك الصومعة البدائية المصنوعة من الخيش والقش.

كان الرجال الأربعة يتدثرون بأسمال بالية ويصطلون أمام راكية واهنة خبت نيرانها فبدت كجمرات باردة متناثرة لا تغنيهم شيئا عن الظلام والبرودة التي تسري في عظامهم كمناشير حادة صغيرة!

كانوا أربعة رجال مختلفي الأهواء والأمزجة، لكن جمعت بينهم في هذه اللحظة رابطة من نوع خاص.. رابطة اليأس والعجز!

لقد بدأت مرحلة النهاية منذ ثلاثة أشهر فقط..

عندما اندلعت الحرب العالمية الثالثة بين القوى العظمى المتناحرة، واستمرت لمدة ساعتين.. ساعتين استعملت فيهما القوى المتصارعة كل ما أوتيت من أسلحة نووية وكيماوية وبيولوجية.. وكانت النتيجة أن دمرت الأرض ومُحيت الحضارة كما نعرفها.

الإنسان – خليفة الله في الأرض وأنبل مخلوقاته – تحول بين ليلة وضحاها إلى كائن بدائي وحيد يأوي إلى الأكواخ ويتدثر بجلود الحيوانات، ويسد رمقه من الطعام بالجمع والالتقاط وصيد الحيوانات البرية..

ويا له من مصير، ويا لها من نهاية!

نهاية حضارة نمت وازدهرت لما يقرب من عشرين ألف سنة!

وفي تلك الليلة، تجمع الرجال الأربعة في ذلك الكوخ يجترون الذكريات الفائتة.. ذكريات ما قبل النهاية.

* * *

قال أحدهم ويدعى «س»:

- لكم أتمنى أن يعود بي الزمن إلى الوراء قليلا.. إلى سنوات ما قبل الحرب، إنني أغمض عيني الآن وأتذكر.. أتذكر شركاتي ومصانعي والحياة الفخمة التي كنت أحياها بينما مئات الموظفين والخدم يسهرون على راحتي.

وفرد كفيه فوق الراكية ليصطلي:

- رأيي أن ما نحتاجه الآن هو الأموال، الكثير منها.. كي نعيد بناء ما راح.

رد آخر، ويدعى «ع»:

- أنا أختلف معك في هذا الرأي.. لقد دمرت الحرب الأخيرة كل أوجه الحضارة.. لا مواصلات لا مباني لا وسائل اتصالات.. ماتت الأعشاب وجفت الضروع ونفقت معظم الحيوانات.. إن آخر ما نحتاجه الآن هو أموالك هذه في وقت بتنا نحارب فيه من أجل لقمة العيش.

هتف «س»:

– هراء.. إن المجتمعات المتقدمة تقوم أساسا على الأموال التي تنكرها أنت.. هات أرضا قفرة مثل هذه ومجموعة رجال، واختص أحدهم برزمة نقود وسوف ترى مجتمعا جديدا ينمو ويزدهر فيه السيد والخادم والعامل والفلاح!

قال الثالث «ص»:

– أنا مع «ع».. ماذا تفيد النقود في عالم يحتضر كهذا؟! لقد عانى هذا الكوكب طويلا تحكم أصحاب الثروات الهائلة على حساب فقراء لا يجدون ما يسد جوعهم، ما صنع فجوة ضخمة بين الطائفتين وخللا رهيبا في تماسك أبناء الجنس الواحد..

وتنهد:

– رأيي أن جُل ما نحتاجه الآن هو العودة إلى العشيرة وبناء مجتمع جديد قائم على التآلف والتآخي بين أفراده.

همَّ «س» بالتعقيب عندما اندفع رجل خامس إلى الصومعة وفي يده حيوان جبلي ينزف من جرح غائر في عنقه..

– مرحى يا «ن».. يبدو أنك قد وقعت على صيد ثمين!

قالها «ص»، في حين شرع «ن» في تمزيق الحيوان بواسطة صخرة

مدببة، ثم ناول كلا منهم نصيبه كيفما اتفق في سرعة.

وتردد لحظة قبل أن يمد يده بقطعة أخرى إلى الرابع الذي ظل صامتا طوال الوقت في جانب الصومعة.

التفت «س» إلى الرابع، وسأله بلا اكتراث، وهو يقضم قطعة كبيرة من نصيبه بينما الدماء تغمر ذقنه وصدره:

– وأنت يا عزيزي «م».. ما الذي تتمناه في مجتمعنا الجديد؟

تجاهل هذا الأخير يد الخامس الممدودة إليه بقطعة اللحم الدامية، ونقل بصره إلى الثلاثة الذين يلوكون اللحم النيء في استمتاع، ثم نهض في بطء، واتجه نحو باب الصومعة، وقال دون أن يلتفت إليهم:

– أتمنى كوبا وطبقا وملعقة، لكي أشعر بآدميتي من جديد!

* * *

29 فبراير 2048..
مستقبل لا يمكن تجنبه!

قصاصة من جريدة يومية واسعة الانتشار:

«عالم شهير يتنبأ بدخول الأرض الطور الرابع ونهاية العالم»

كتبت «أماني كامل»:

الطور الأول: وفيه يتم تدمير عمارة الكون بأسره، بكل النجوم والمجرات والحشود الكونية... باختصار.. يوم القيامة!

الطور الثاني: كوارث تؤدي إلى دمار المجموعة الشمسية فقط، بما فيها كوكب الأرض.

الطور الثالث: كوارث تصيب كوكب الأرض فقط، وليس كامل المنظومة الشمسية.

الطور الرابع: كوارث تؤدي إلى فناء الجنس البشري على الأرض، إلا قليلا.. حتى لو استمرت حياة الكوكب نفسه! شيء أشبه بطوفان «نوح» - عليه السلام.

كانت هذه هي مقدمة كتاب «الطور الرابع»، ذلك الكتاب المثير

للجدل الذي قام بتأليفه «د. رفعت عمار» – أحد أشهر علمائنا – وفيه تنبأ بأن الأرض الآن في المراحل الأولى للدخول في الطور الرابع، وفيه سوف تتم إزاحة الجنس البشري بواسطة مخلوقات فوقية غريبة!

وفي الفصل الأخير من الكتاب يفند «د. رفعت» آراءه، موضحا المبررات التي بنى عليها هذا التوقع المخيف، والتي من أهمها أن البشر قد نالوا فرصتهم أكثر من مرة، لكن غباءهم وغرورهم أبيا إلا أن يهدروها بفظاظة.

لقد تطاولوا على وحدانية الخالق وظنوا أن علمهم قادر على السيطرة على نواميس الطبيعة، فماذا كانت النتيجة؟!

قاموا بتلويث بيئتهم التي يعتمدون عليها في الحياة، وأغرقوا أنفسهم في حروب كثيرة لأسباب تافهة، ما جعلهم أشبه بمرض كوني يجب اقتلاعه من جذوره!

* * *

في عدد تالٍ من الجريدة نفسها:

«الطور الرابع.. وخرافة نهاية العالم!»

بقلم: «د. جابر الوكيل»

.. ولأسباب كثيرة أجد نفسي مدفوعا على مضض للرد على تساؤلات

الطور الرابع إياه، وخرافة نهاية العالم التي أوردها «د. رفعت» في كتابه الأخير.. للأسف الشديد كان واحدا من أهم علمائنا خلال ربع القرن الأخير قبل أن يصاب بلوثة ويؤلف كتابه هذا!

وأحد أهم هذه الأسباب – التي سأوضحها تباعا – هو إيماني المطلق بالعلم وعقلانية العقل البشري.. الكيان الواعي الوحيد في هذا الكون.

إن حجج «د. رفعت» المليئة بالتصوف والإيمان بالغيبيات تعد واحدة من أخطر النكسات العلمية في العصر الحديث!

* * *

جزء من حوار تليفزيوني مع «د. عزت نصار» – أحد أهم علماء الفلك في القرن.

المذيع:

– إذًا أنت – سيدي الجليل – تؤمن بوجود حياة ذكية في كواكب أخرى!

«د. عزت»:

– أومن؟! من فضلك لا تستعمل هذه الكلمة ثانية.. لا تدخل كلمات عشوائية من شأنها أن تفتح بابا للإرهاصات والغيبيات العقيمة في عالمنا.. إن العلم لا يقبل مثل هذه الأشياء.. بل هناك المعطيات والاستنتاجات.. العلة

والمعلول.. الأرقام والإحصاء، وبمثل هذا المنطق سيطرنا على معطيات عالمنا والعوالم الأخرى فيما بعد..

أعطني سؤالا منطقيا تظفر بإجابة منطقية!

عدد النجوم في سماء صافية.. عدد حبات الرمال على الشاطئ.. نوع الجنين الذي تريد أن تظفر به، طوله.. وزنه.. لون شعره!

المذيع في انبهار:

– يا للروعة!! أرجو – سيدي العظيم – أن تسامحني على زلة لساني.

«د. عزت» في رضا:

– لا عليك.. كما ترى هي أشياء سهلة وبسيطة.

وأشار إلى رأسه مردفا:

– ما دمت تعمل هذا...

وتابع:

– نعود إلى سؤالك الأول عن مخلوقات الفضاء، والإجابة هي: نعم، إن الأرقام تثبت – بما لا يدع مجالا للشك – أنهم موجودون بالفعل، وقوانين الإحصاء تشير إلى أننا متفوقون علميا عليهم، وقريبا سوف تسنح لنا الفرصة

للوصول إليهم والسيطرة عليهم.

وتنهد:

– لو منحتني نصف ساعة مع كمبيوتر صغير لأمكنني أن أعطيك – وبكل ثقة – المعلومات التي تريدها عن تلك المخلوقات: أشكالهم.. دورات حياتهم.. عاداتهم في الأكل... إلخ.

.. بلا توقعات أو تنبؤات أو أمور غيبية!

لهث المذيع:

– أنت.. أنت رائع يا سيدي.. إنك لفخر لعالمنا هذا.

تراجع «د. عزت» في مقعده قائلا في أريحية:

– لا عليك! إنه العلم يا عزيزي.. فقط العلم!

* * *

جزء من قصة قصيرة لكاتب شاب بعنوان: «هذا الجانب من الجحيم».

نُشرت في مجلة «أدبيات».

لقد جاءوا بمركباتهم الضخمة من وراء النجوم.. كانوا أشبه بمجموعة رحالة يتنقلون من مكان إلى آخر، بكامل عدتهم طوال الوقت.. لا يستقرون في مكان بعينه.. هم مخلوقات مسالمة منحهم تفوقهم العلمي الهائل

فضيلة التسامح، وليس الصبر!

لقد رأوا ببصيرتهم الواعية أن البشر أمسوا مجموعة من الحشرات المتناحرة فيما بينها.. لا يردعها وازع من ضمير أو أخلاقيات، وخشوا أن يمتد طغيانهم هذا إلى مخلوقات العوالم الأخرى المسالمة؛ فجشدوا قواتهم وجاءوا إلى الأرض، لوضع حد للغرور البشري.

* * *

جزء من مقالة بعنوان «رؤية نقدية لعشر قصص قصيرة!»..

نشرت في مجلة «آفاق أدبية».. بقلم: «خيري يوسف».

أما عن قصة «هذا الجانب من الجحيم» للكاتب الشاب «هشام سعد»، فهي قصة ضعيفة المستوى، تافهة المضمون، تعتمد على مبدأ علمي مهتز، يفترض فيها الكاتب أن هناك مخلوقات واعية في الكون أشد منا ذكاءً وتخطط لغزونا!

وفات على الكاتب الشاب أن يعلم أن العقل البشري هو قمة الذكاء في هذا الكون.. الشيء المتفرد الذي يسيطر على معطيات عالمه بحكمة تستحق التقدير.. ومخلوقاته الفضائية هذه - إن وُجدت - فسوف تكون مجرد كائنات بدائية..

لن ترقى أبدا لمستوى البشر!

* * *

صفحة العلوم بجريدة «يوتوبيا»:

نيزك يصطدم بالصحراء الغربية!

كتب «أمين وهدان»:

في الساعة الرابعة من صباح اليوم، أشار مرصد حلوان إلى اقتراب نيزك من الأرض، وجاءت إحداثيات الهبوط لتؤكد اصطدامه بالأرض بالفعل، داخل صحرائنا الغربية..

الغريب في الأمر ما أعلنته وكالات الفضاء الأوروبية من سقوط عدد من النيازك المشابهة في أماكن متفرقة من العالم!

* * *

جزء من برنامج «كل شيء عن:...»

حلقة اليوم عن النيازك..

المعلق:

- النيازك هي شهب غير تامة الاحتراق، ينجح جزء منها في الوصول إلى الأرض، بعد عبور غلافها الجوي.. وتنقسم النيازك إلى ثلاثة أنواع تبعا للمادة التي تتكون منها:

1- أيروليت: ويتكون من الصخور.

2- سيديريت: ويتكون من المعادن.

3- سيدروليث: وهو خليط من المعادن والصخور.

ويُعتقد أن النيازك والشهب هي بقايا كواكب قديمة انفجرت... إلخ!

* * *

ورقة صغيرة تم انتزاعها من تقويم حائط، تتقاذفها الرياح هنا وهناك، وعليها تاريخ اليوم:

29 فبراير 2048..

وحكمة صغيرة أسفل الورقة، تقول:

الغد هو مستقبل لا يمكن تجنبه!

* * *

جزء من التغطية التليفزيونية لمكان سقوط النيزك في الصحراء الغربية.

المذيعة:

- أعزائي المشاهدين، معكم «سالي مندور» من مكان سقوط النيزك، وحولي - كما ترون - مجموعة من العلماء الذين جاءوا لفحص النيزك الغريب، الذي اصطدم بصحرائنا منذ ساعات قليلة، و... يا إلهي! ما هذا؟!

واقتربت الكاميرا من الجهة التي تنظر إليها..

كان قلب النيزك ينفتح في بطء، كاشفا عن فجوة كبيرة احتشد داخلها

الكثير من الأجهزة الغريبة..

وقبل أن يتحرك أحد من مكانه، انطلقت إشعاعات مخيفة من النيزك لتصرعهم على الفور.

صرخت المذيعة:

- يا للهول!! إنه ليس مجرد نيزك عادي.. يبدو أنها سفينة فضائية من كوكب آخر، و... رباه!! إنهم يخرجون من النيزك ويقتلون كل شخص، إنهم يدمرون كل شيء.. إنهم...

وفجأة، انقطع الإرسال وانطلق تشويش من التليفزيون، استمر لبعض الوقت قبل أن تمتد يد غريبة غير بشرية تضغط زر الإيقاف؛ لتطفئ الشاشة في سرعة..

وفي الخارج.. كان الصمت الرهيب يخيم على المكان، وكانت الحطام تنتشر بطول الكوكب وعرضه، والأدخنة وذرات الغبار تغلف الجو برداء سميك، بينما الليل الطويل يزحف في بطء على سطح الكوكب!

* * *



خدمة ممتازة!

تألقت الساعة الإلكترونية بضوء مبهر لأقل من لحظة، ثم انطلق صوت عالٍ يردد:

- الساعة الآن السادسة صباحا.

ومع نهاية العبارة، دبت الحركة في الروبوت «آي كيو آر - **9948**»، وتحرك من مكمنه في الحجرة المجاورة..

كان «آي كيو آر - **9948**» روبوتا حديثا ماركة «جيزة - **99**».. طراز «**99** - خم - **2048**»، وهو معد خصيصا للخدمة المنزلية الممتازة.

كان الجيل الأول من هذا الطراز بطيئا متبلدا لا ينفذ إلا ما يملى عليه من أوامر أولا بأول.

أما «آي كيو آر - **9948**» فقد كان أحدث صيحة في عالم روبوتات الخدمة المنزلية الممتازة!

فهو يؤدي الأعمال المنزلية المعتادة من تلقاء نفسه، عبر برنامج مسبق تم تلقينه إياه منذ بداية تصنيعه!

وفي ذلك اليوم، ومع دقات الساعة السادسة، تحرك «آي كيو آر -

9948» من مكانه في جانب الحجرة المظلم، وتألقت عيناه الكهروضوئيتان، وهو يتجه نحو الحجرة الرئيسية، ويطرق على بابها طرقة خافتة:

- حان الآن موعد استيقاظ السيد والسيدة!

ودار على عقبيه في خفة مدهشة، ومشى إلى حجرة أخرى في نهاية الممر، وطرق بابها:

- موعد استيقاظ الآنسة الصغيرة!

ثم اتجه إلى المطبخ، وبدأ إعدادات طهي طعام الإفطار الخاص بيوم السبت..

الأومليت.. للسيد والسيدة..

شطيرة الجبن الأبيض وكوب اللبن عالي الدسم.. للآنسة الصغيرة..

كان يؤدي عمله في سرعة ومهارة تستحقان الإعجاب!

كانت إمكانات «آي كيو آر - 9948» من الذكاء الصناعي محدودة؛ لذا لم يُتَح له أبدا التفكير في ذاته إلا قليلا..

على الرغم من نمطية عمله المستمر.. لا يشعر بالملل، أو الضجر!

إيقاظ أفراد الأسرة..

تحضير الطعام..

الأشغال المنزلية المعتادة..

استذكار دروس الآنسة الصغيرة..

الإصلاحات الفنية في المنزل..

دورة أبدية لا تنتهي!

وفي ذلك اليوم، بينما «آي كيو آر – **9948**» يرفع الأطباق من فوق المائدة، ارتفع أزيز خافت داخل عقله الإلكتروني، مع عبارة صغيرة...

اليوم: الأول من يناير..

عيد ميلاد الآنسة الصغيرة.

كان من العسير حقا أن نضفي بعض الصفات البشرية، كالمشاعر والأحاسيس، على «آي كيو آر – **9948**»، لكن الشيء الغريب فعلا هو مقدار السلاسة والخفة اللتين تعمل بهما آلياته عندما يتعامل مع الآنسة الصغيرة.. حاول أن يقارن تلك الحالة بملايين الحالات البشرية المسجلة عنده، فلم يجد تفسيرا لهذا في دوائره سوى مصطلح واحد فقط.. هو «السعادة»!

كان يربكه دوما – وهو الروبوت الآلي الذي لا يلقي بالا للزمان – الساعات التي يعدها بنفاد صبر في انتظار عودتها إلى المنزل!

كانت الآنسة الصغيرة – وقد بلغت اليوم عامها السابع – تلقي بحقيبتها عند الباب، وتهرع إليه من فورها؛ ليلعبا معا!

لذا كان ينهي أعماله الروتينية المعتادة في سرعة، ويجلس في انتظار عودتها من المدرسة!

ذات يوم قالت له بلهجتها الطفولية:

– إنني أنطق اسمك بصعوبة..

وأردفت، وهي تضم شفتيها في جدية مصطنعة:

– الروبوت «آي كيو آر – **9948**».. لم لا أطلق عليك اسما أكثر سهولة؟

فيرد عليها بسلاسة:

– لا بأس!

ابتسمت في خجل:

– هناك تلميذ معي في الفصل الدراسي.. اسمه «طارق».. إنه ظريف وذكي ويلعب معي، و...

أكمل:

– و...

تخضب وجهها خجلا، مكملة:

– و...

صمت لحظة، ثم تمايل:

– «طارق».. الروبوت «طارق».. لا بأس! يبدو مناسبا!

صفقت بكفيها في جذل طفولي، واحتضنته في سعادة بالغة.

كان «آي كيو آر – **9948**» قد علَّمها بعض الألعاب المنقرضة، التي قرأ عنها ذات مرة في كتب التاريخ القديم.

الكراسي المتحركة..

عسكر وحرامية..

كيلو بامية... إلخ!

تحرك داخل المطبخ، بعد أن رفع الأطباق وغسلها، وبدأ في إعداد تورتة عيد الميلاد.. ولصق فوقها سبع شموع ملونة..

بألوان قوس قزح!

لا ريب أنها سوف تنال إعجاب الآنسة الصغيرة..

ووضعها على المائدة في حجرة الطعام، وانسحب جانبا إلى مفتاح الإضاءة، وأغلقه..

وطفق ينتظر عودتها من المدرسة!

* * *

في نهاية اليوم، عاد «آي كيو آر - **9948**» إلى مكمنه في جانب الحجرة المظلم بصعوبة بالغة، كانت مفصلاته قد صدأت بشدة، وأصبحت حركته متعثرة بعض الشيء..

لم يكن يشعر بالتذمر أو التكرار أو الملل من عمله هذا..

بالأحرى لم يكن يشعر بشيء على الإطلاق!

مائة عام كاملة مرَّت على نهاية الحرب العالمية الثالثة، بعد أن أفنت الجنس البشري بأكمله..

بمن فيهم السيد والسيدة، و..

الآنسة الصغيرة..

وعلى الرغم من ذلك، كان «آي كيو آر - **9948**» يقوم بعمله المعتاد على أكمل وجه.. لا خطأ.. لا تقاعس.. لا إهمال.

لمدة مائة عام!

كان عنده أمل غريب في عودتهم من جديد..

وعلى هذا الأمل استمر في عمله الدءوب بلا توقف، على مدى قرن كامل من الزمان!

* * *

في صباح اليوم التالي، ومع دقات الساعة، ارتفع الصوت الآلي مرددا:

- الساعة الآن السادسة صباحا..

ولأول مرة منذ أكثر من مائة عام، لم يلب «آي كيو آر - **9948**» النداء..

كانت ذاكرته تتسرب منه في بطء.. وعجزت ردود فعله عن الاستجابة!

وبآخر دفقة من إمكانات الذكاء الصناعي، وقبل أن تتوقف آلياته عن العمل تماما.. أدرك شيئا غريبا بحق..

وهو أن الصدأ لم يكن السبب في موته..

وإنما الحنين.. الحنين إلى الجنس البشري..

السيد.. السيدة.. وآنسة بضفيرتين صغيرتين في السابعة من عمرها، تبتسم في طفولة وبراءة..

الآنسة الصغيرة!

* * *



صوفي!

عاد الطبيب إلى مقعده في بطء بينما عيناه معلقتان بالمريض الراقد أمامه:

– تستطيع أن تنهض يا باشمهندس.

نهض هذا الأخير من فوق شيزلونج الفحص:

– خيرا يا دكتور؟

– استرخِ يا «أحمد».. أرى أنك في حاجة إلى راحة طويلة بعيدا عن ضغوط ومشاكل الحياة.

– هل تعتقد أن هذا كافٍ لحالتي يا دكتور؟

تراجع الطبيب في مقعده:

– بكل تأكيد.. إن كل ما تحتاجه الآن يا «أحمد» هو الراحة.. راحة طويلة بعيدا عن ضغوط العمل النفسية.. حاول أن تغير من عاداتك.. من الأماكن التي ترتادها.. من الوجوه التي تراها كل يوم، في الشارع.. في العمل.. في النادي.

زفر «أحمد»:

– بصراحة لقد سئمت كل شيء.. من النوادي إلى المصايف إلى دور السينما إلى المسارح!

ضم الطبيب قبضتيه على حافة المكتب:

– لا بأس.. أنت كما أرى يا «أحمد»، شخص سوي، متعلم، مثقف، وسيم، ميسور الحال.. لا ينقصه شيء مما يعتبره العامة وقصيرو النظر أحد مقومات السعادة في الحياة، لكنك تعيش في عالم من خيالك.. عالم أقرب لـ«يوتوبيا» منه لعالم حقيقي.. حالم في واقع مرير لا يرحم الحالمين!

وتنهد:

– أنت تماما مثل الجنرال الألماني «هيس» في الحرب العالمية الثانية.. لقد كان حالما آخر، قاد طائرته الخاصة إلى الشواطئ البريطانية عارضا عليهم السلام.. اعتقد أنه بمحاولته هذه يستطيع إنهاء حرب عالمية شاملة استمرت ما يقرب من ستة أعوام كاملة.. ثم ماذا كانت النتيجة؟! سجنه البريطانيون باعتباره جاسوسا ألمانيا خطيرا، واعتبره الألمان خائنا مارقا يستوجب العقاب.. فالواقع – كما ترى – لا يرحم الحالمين وأصحاب المثل!

– لكنني لا أطمح إلى إنهاء حرب عالمية مثل «هيس»، وإنما كل ما أحلم به وأتمناه هو الحب.. الحب الحقيقي.

– حسنا.. لكن أخبرني حقيقة لماذا لم تتزوج حتى الآن؟ أنت لا تعوزك المادة ولا تنقصك ملاحة الشكل أو سلامة البدن.. وأنت – كما أعرف عنك – قد سافرت وذهبت وعدت، وعرفت فتيات كثيرات، ألم تجد الحب الحقيقي لدى واحدة منهن؟!

هز رأسه نفيا:

– هل تصدقني لو قلت لك: لا.. إن ما أبحث عنه ليس مجرد حب عادي، وإنما..

وتوقف عن الاستطراد لحظة، ثم قال:

– وإنما شيء آخر.. شيء أعظم وأسمى.. بُعد آخر فيما وراء الزمان والمكان.. ليس مجرد حب حقيقي، وإنما الحب الحقيقي الذي يمتزج فيه الحبيب بمحبوبته ليصبحا كيانا واحدا، وفكرة واحدة مقسمة بين شخصين.. هل تفهمني؟ ذلك الحب الذي يجعل الحبيب يشعر بمحبوبته بغض النظر عن بُعد المسافة بينهما.. ذلك الحب الذي.. الذي...

وتوقف لحظة، ثم أردف:

– للأسف لا أملك البلاغة الكافية للتعبير عمًّا أشعر به.

هز الطبيب رأسه متفهما:

– أنت شخص ذكي ومتدين يا «أحمد».. أعرف أن مقاييسك لفتاة

الأحلام ليست هي نفسها مقاييس الشخص العادي، لكننا متفقون – على الأقل – على الخطوط العريضة: التدين والجمال والثقافة.. أليس كذلك؟

– بلى.. لكن ما أطمح إليه هو الحب الذي لا يتقيد بحدود.. الحب الذي أسمعه وأشمه وأحس به قبل حتى أن أراه.

– إذًا حاول أن تجده داخلك.. حاول أن تصغي إلى صوته، وسوف تقابله حتما.

– إني أحاول بالفعل، لكنْ...

توقف بغتة عن الاستطراد، وأرهف السمع في تركيز؛ فنظر إليه الطبيب في قلق:

– «أحمد».. هل أنت معي؟

أشار إليه «أحمد» بيده:

– أنصت!

عاد الطبيب ينظر إليه في قلق، في حين تابع هو:

– هل تسمع؟

تساءل الطبيب بحيرة بالغة:

– أسمع ماذا؟!

أجاب:

- إنها تناديني.. تقول إنها طالما بحثت عني كما أبحث أنا عنها.

أرهف الطبيب السمع فلم يسمع شيئا، فمال نحوه:

- «أحمد».. أنا لا أسمع شيئا..

- كيف؟ أنا.. أنا...

ثم سكت فجأة، وهب من مكانه:

- سأذهب الآن.

- لكننا لم... حسنا.. يمكننا أن نكمل في الجلسة المقبلة.

- لا بأس!

* * *

نزل «أحمد» درجات السلم في سرعة، وذهنه شارد بشدة، بينما عقله يفرض عليه تساؤلات عدة عجز عن الإلمام بمعظمها أو استيعاب المغزى من ورائها!

- كيف أمكن أن...؟

أن ماذا؟! لقد نسي!

هل ساءت حالته إلى هذا الحد؟! لا يعلم حقا!!

أم أنه مجرد حالم آخر في دنيا لا ترحم، كما يقول طبيبه المعالج؟

هل توهم الصوت الذي سمعه منذ دقائق؟!

هل يتخلى عن بحثه المأساوي الطويل عن الحب الحقيقي كما يتمناه، ويكتفي بحياة عادية مملة وزوجة تقليدية؟!

هل..؟!

وعبر الشارع إلى الإفريز المقابل، وذهنه المكدود غارق في لجة من التساؤلات، و...

وفجأة، سمع صوتا أنثويا عذبا يصرخ عاليا.. نفس الصوت الذي سمعه في عيادة الطبيب..

وكان الصوت يصرخ فيه:

– احترس!! هناك سيارة قادمة!

قفز «أحمد» بغتة جانبا، وتدحرج أرضا، وهو يتلفت حوله في رعب.. ولم يكد يفعل حتى عبرت سيارة مسرعة المكان الذي كان يشغله منذ لحظات.

نهض من مكانه، وجسده كله ينتفض في عنف..

عاد يتلفت حوله في توتر..

لم يكن هناك أحد!!

ترى من صاحبة هذا الصوت؟

وأخذ يتطلع إلى النيل عبر الحاجز الحديدي، بينما جسده ينتفض في عنف.

وفجأة، سمع الصوت يخاطبه ثانية:

- «أحمد».. هل تسمعني؟

عاد يتلفت حوله، وأرسل بصره إلى الطريق والسيارات المسرعة على جانبي الطريق، ثم قال في تردد:

- نعم، أسمعك..

وأردف:

- لكن.. من أنت؟ وأين أنت بالضبط؟ إنني لا أستطيع رؤيتك.

- لكنني أراك جيدا.

- هذا لا يكفي.. إنني أحاورك، وعلى الرغم من ذلك لا أستطيع رؤيتك، وهذا يجعلني أفقد الثقة بعقلي.

- لا بأس! إنك لن تستطيع رؤيتي، لكنني سوف أخبرك من أنا.

- من أنت إذًا؟!

أجابت بضحكة طفولية:

- أنا «صوفي»..

- تشرفنا..

- ألم تعرفني بعد؟!

رد في حيرة:

- لا أعتقد أنني...

قاطعته:

- أنا «صوفي».. ابنة «ساشا» ملك ملوك «فيرونا»!

وأردفت:

- لطالما كنت أبحث عنك كما تفعل أنت.. أكثر من عشرين عاما وأنا أبحث عنك يا «أحمد»، لكم تمنيت أن أراك.. أن أرى الحب الحقيقي الذي تمنيته طيلة حياتي.. حبك يا «أحمد».

ارتجف جسده في شدة، وهو يردد:

- حبي أنا؟!

- أجل.. حب غير مقيد بحدود الزمان أو المكان..

همس في خفوت:

– «صوفي».. أنا.. أنا..

قاطعته بغتة في فزع:

– لكنك يجب أن تستيقظ.. الآن! هناك خطر داهم على حياتك.

رد ناهلا:

– أستيقظ؟! لكنني...

تابعت في سرعة:

– استيقظ يا «أحمد».. استيقظ يا حبيبي..

استيقظ!

هبَّ «أحمد» من نومه فزعا على صوت طرقات حادة على باب شقته، والتفت إلى المنبه جواره، ورآه يشير إلى الثانية صباحا.

هل كان كل هذا مجرد حلم؟!

ارتفعت طرقة أخرى على الباب؛ فهب من فراشه واتجه صوب الباب، قائلا في توتر:

– من بالباب؟

أتاه صوت صارم:

– افتح يا باشمهندس.. بوليس!

فتح هذا الأخير الباب في سرعة ليطالعه وجه ضابط شرطة شاب ومعه عدد من الجنود، والضابط يقول:

– المهندس «أحمد شاكر».. إنني ألقي القبض عليك بتهمة ممارسة الأحلام في أثناء نومك.. أحلام متطرفة غير موثقة من قِبَل هيئات الحزب!

– لكنني.. لكنني...

– لا فائدة من الإنكار.. لقد تم تصوير الحلم بالصوت والصورة، تصويرا مجسما عن طريق المجسات الصغيرة المزروعة داخل عقلك..

وتنهد:

– صدقني.. لا فائدة.

وأشاح بوجهه، مضيفا:

– خذوه!

* * *

فرديس *

- 1 -

كان العجوز يغوص في فراشه، وعيناه تشخصان في وهن شديد، بينما أبناؤه وأحفاده يلتفون حوله، وفي عيونهم نظرة قلق بالغ!

كانت زوجته تميل نحوه في قلق، بينما يداها تطبقان على كفه في حنان جارف..

رسم ابتسامة صغيرة على شفتيه بصعوبة بالغة، وتمتم في خفوت:

– لا تقلقي يا عزيزتي..

كانت عجوزا تجاوزت العقد السابع بسنوات قليلة..

صار شعرها في لون الجليد، وملأت التجاعيد وجهها، لكنه كان يراها في هذه اللحظة مثلما كانت عندما قابلها أول مرة منذ أكثر من ثلاثين سنة.. أجمل مخلوقة وقعت عليها عيناه!

شعرت بارتجافة خافتة في يده المستقرة بين كفيها، وبعينيه الواهنتين تتجاوزان وجهها إلى جانب الحجرة البعيد..

* «فرد - يس»: اسم الكوكب مشتق من كلمة «الفردوس»، ومرادفها بالإنجليزية «باراديس».

ألقت نظرة سريعة على المكان الـذي يحـدق فيـه، ثـم عـادت تلتفـت إليه:

- هل تبغي شيئا؟

لكنه لم يجب على الفور، وإنما واصل تحديقه في نفس المكـان، وبـدا كأنما يرهف السمع لصوت ما، واتسعت الابتسامة المرتسمة على وجهه..

التفت إلى أبنائه:

- أريد أن أنفرد بوالدتكم بعض الوقت.

ارتسم القلق على ملامحهم، فأردف في مرح:

- هل لدى أحدكم اعتراض؟!

اغتصب أحدهم ابتسامة شاحبة:

- لا اعتراض بالطبع.

وأردف:

- لن يرضينا أبدا أن نكون مثل «غراب البين» بين المحبين.

وتبادل نظرة مرتبكة مع إخوته، ثم تراجعوا إلى الخارج في تردد..

وما إن خلت الحجرة، حتى مالت الزوجة عليه، قائلة:

- حسنا يا زوجي العزيز.. إن الأولاد قلقون بما فيه الكفاية، و...

قاطعها بضغطة خافتة على يدها، ثم همس:

– اقتربي مني يا عزيزتي..

وتلاحقت أنفاسه:

– هناك شيء يجب أن أخبرك به!

مالت نحوه في ترقب حائر، فأردف في سرعة، وكأنما يخشى أن تهرب الكلمات منه:

– منذ متى ونحن نعرف بعضنا البعض؟

ابتسمت:

– يا له من سؤال! إن ذاكرتي قد أصابها وهن الشيخوخة مثل جسدي، و...

قاطعها في حزم عجيب:

– منذ متى؟

هزت رأسها في حيرة من رد فعله، ثم قالت:

– أكثر من ثلاثين عاما.

استرخى جسده:

– بل ستة وثلاثين عاما بالتمام والكمال!

وتابع:

– هناك جزء خفي من حياتي، لم أخبرك به طوال هذه السنوات.. لا لشيء إلا لأنني لم أتذكره إلا الآن!

تطلعت إليه في قلق لأكثر من نصف دقيقة، ثم ربتت على كتفه:

– حسنا يا «أدهم».. تستطيع أن تخبرني بذلك السر عندما تستريح.

عاد يقاطعها:

– لا! يجب أن تستمعي إليَّ الآن.

ارتجف جسدها من حدته المباغتة، فعادت تربت على كتفه:

– لا بأس يا عزيزي.. لا بأس.

عاد جسده يسترخي ثانية:

– تذكرين بالطبع ذلك اليوم – منذ ستة وثلاثين عاما – عندما تقابلنا لأول مرة في ذلك المتجر بوسط البلد.

سرحت ببصرها، وكأنما تستعيد ذكرى بعيدة حبيبة إلى قلبها:

– لقد جئت لشراء بعض الملابس، وكنت أنت أحد العاملين هناك.

أكمل هو:

– وما إن وقعت عيناي عليك حتى خفق قلبي بشدة، وارتفع صوت في

أعماقي يهتف لي بأنك الفتاة التي تمنيتها في أحلامي.. الفتاة التي يمكن أن أقاتل للفوز بها.

تخضب وجهها بحمرة خجل عجيب:

- كان هذا نفس شعوري تجاهك وقتها.

ابتسم في حنان:

- وقتها فقط؟!

أطرقت برأسها دون أن تجيب، فتابع:

- بعد ذلك تعددت لقاءاتنا، وعرفت الكثير عني.. وعن أسرتي التي راحت ضحية حادث سيارة، وأنا بعدُ طفل رضيع، وعن حياتي في بيت عمي في إحدى قرى محافظة الدقهلية.. عن تعليمي ونزوحي إلى القاهرة للبحث عن فرصة عمل..

- هذا صحيح.

- حسنا.. لقد كان كل هذا عبارة عن كذبة كبيرة عشت فيها وصدقتها، بل وآمنت بها!

شحب وجهها:

- ماذا؟! ماذا تقول؟!

رد في صدق:

– أنا لم أكذب عليك.. وإنما أخبرتك بما كنت أومن به وقتها!

ارتسمت أمارات عدم الفهم على وجهها، فتابع:

– لقد أخبرتك بما أرادوا أن أصدقه.

– من هم؟

لم يجب، وتابع:

– والحقيقة التي تذكرتها لتوِّي هي أنني لست من تلك القرية التي أخبرتك عنها.. ولست من مصر..

وتلاحقت أنفاسه:

– بل لست من كوكب الأرض ذاته!

لم تعلق الزوجة، وإن نمت كل خلجة من خلجاتها من القلق على سلامة قواه العقلية، فهز رأسه لحظة:

– معك حق في عدم تصديقي.. إن الأمر أكبر منا جميعا، لكن هذه هي الحقيقة.. إنني لست من كوكب الأرض، وإنما من كوكب آخر يدعى «فرديس»، يبعد ملايين السنين الضوئية عن الأرض.. كوكب نسيت الأجيال الجديدة هنا وجوده أو تناست ذلك بعد أن حرم حكامه الاتصال بالأرض.

لم تعرفَ بماذا ترد.. كانت نبراته كلها تنم عن صدق بالغ وإيمان شديد بما يقوله، فسألته في خفوت:

– أتعني أنك لست بشريا؟

ضحك حتى أصابته نوبة سعال:

– ليس إلى هذا الحد.. أنا بشري مثلك.. بشري قلبا وقالبا إن صح التعبير.

لم يبدُ عليها أنها قد فهمت شيئا، فربت على يدها:

– الأمر ليس لغزا مستعصيا، ولهذا قصة يجب أن تسمعيها!

وبدأ يروي..

* * *

– 2 –

انطلقت صافرة عالية تعلن عن انتهاء نوبة العمل، فلملم العمال معداتهم، وانطلقوا من فورهم صوب باب الخروج.

كان «أدهم» يجر قدميه بتثاقل وعلى ملامحه أمارات كرب شديد، ولم يكد يتحرك بضع خطوات حتى شعر بيد على كتفه، مع صوت واهن يغمغم:

– هييه.. كيف حالك اليوم أيها الشاب؟

التفت إلى صاحب الصوت، ليطالعه وجه زميله وصديقه «منير»..

كان «منير» شيخا بلغ أرذل العمر، وصارت صحته متداعيـة بـشدة، لكنه كان صديقه الوحيد منذ بدأ عمله في هذا المصنع..

- بخير.

وأردف بقلق:

- تبدو متعبا اليوم.

- لا بأس يا صديقي.. ما رأيك بكأسين من «السُعادي» في منزلي؟

هز رأسه بلا معنى وعمَّهما الصمت حتى وصلا إلى منـزل «مـنير» في نهاية الشارع.

نزع هذا الأخير معطفه وعلقه على المشجب، وجلب كوبين من سـائل قرمزي له رائحة نفَّاذة وجلس قبالته..

- هه؟! ألن تخبرني بسبب حزنك هذا؟

سكت «أدهم» لحظة:

- لم لا تخبرني بالمزيد عن كوكب الأرض؟

تراجع «منير» في مقعده، وقال بأسى:

- الآن قد فهمت سر تجهمك.. يبدو أنني قد أخطأت كثيرا بالحديث

معك في هذا الأمر..

أمسك «أدهم» يده:

– لِم تقول هذا؟

زفر في توتر:

– لقد عرفت منذ اللحظة الأولى التي كلمتك فيها عن كوكب الأرض أنك لن تقنع بالقليل الذي أخبرتك به.. تلك النظرة التي لمعت في عينيك وقتها أخبرتني، وها أنا ذا على حق.

– أرجوك يا «منير».

تلفت هذا الأخير حوله في خوف:

– اهدأ يا «أدهم».. أنت تعرف أن الحديث عن كوكب الأرض يعد من الجرائم الكبرى التي يعاقب عليها قانون كوكبنا بالموت.

– لكن لا أحد هنا سوانا.

– ومن أدراك؟

وصمت لدقيقة كاملة، قبل أن يردف:

– أنت تعلم يا «أدهم» أن كوكبنا «فرديس»، منذ استقلاله عن الأرض، قد صارت له قوانينه وتابوهاته الخاصة، التي تميزه عن باقي

كواكب الإمبراطورية.

- كان هذا منذ ألف وخمسمائة عام.

- وما زال.. لقد قام المستكشفون الأوائل من كوكب الأرض منذ حوالي ألفي عام برحلاتهم الفضائية الطويلة، بدافع من تعطشهم للعلم واستكشاف العوالم الأخرى، وقاموا باستصلاح الكواكب الصالحة لحياة البشر، ومن ثمَّ بدأت الهجرات الجماعية إلى هذه الكواكب بعد أن أصيبت الأرض بالشيخوخة ونضوب مواردها، لكن الحلم كان أجمل من أن يكتمل.. تزايدت المشاحنات بين الدول الكبرى على الأرض، وزادت الحروب، فما كان من سكان كوكبنا الأوائل إلا أن استغلوا الوضع وأعلنوا استقلالهم عن الأرض، وبمرور السنين بدأت نهضة كوكبنا العلمية ترتفع.. ساعدنا على ذلك الموارد البكر التي تملأ الكوكب.. ومع كل درجة في تقدمنا، كانت الأرض تهبط وتنحدر بعد أن أعمى الطمعُ والجشعُ حكامَها..

والتقط أنفاسه المتلاحقة:

- ثم جاء الجد الأكبر لحاكمنا الآن، وأعلن تنصله من كوكب الأرض، ومنع جميع عمليات التبادل التجاري معهم، وقال يومها: إن كوكب الأرض لا يمثل له أكثر من هذا، ورسم بقعة سوداء على موقعه على الخريطة..

ومنذ ذلك الوقت والكلام عن الأرض صار على قائمة المحظورات، حتى إن الأجيال الجديدة لا تعرف عنها سوى خرافات أشبه بالأساطير التي يرددها بعض العجائز حول المدفأة في ليالي الشتاء الباردة..

وأردف في تجهم:

- أو شيخ مشرف على الموت.. مثلي!

ربت «أدهم» على يده:

- لا تقل هذا.. لا ريب أنك مرهق بعض الشيء فحسب..

ثم أطلق ضحكة مفتعلة:

- ثم إنك لم تكمل الخمسمائة عام.. أي أنك لم تبلغ مرحلة الشيخوخة بعد..

أطلق «منير» ضحكة عصبية مبتورة:

- بمناسبة الكلام عن الأعمار.. هل تعلم أن متوسط الأعمار على الأرض يتراوح بين الستين والسبعين، في مقابل خمسمائة وستمائة عندنا؟!

قال «أدهم» في ذهول:

- سبعون عاما؟! أي أنهم يموتون قبل أن يولدوا!!

ضحك «منير» ثانية:

– كما قلت لك.. لقد أحسن المهاجرون الأوائل استغلال طبيعة كوكبنا أحسن استغلال.. فروق الجاذبية.. الموارد البكر.. وجود غاز مجهول بنسب ضئيلة في غلافه الجوي غير سام، لكنه يؤثر على خلايانا، ويزيد من عمرها، ويجعل أجسامنا منيعة ذات قدرات خارقة، إذا ما قورنت بأجسام الأرضيين.. هذا بالإضافة إلى أنهم قد وعوا الدرس جيدا من أسلافهم على الأرض، ووجهوا علمهم وعقولهم إلى بناء مجتمع متماسك قائم على التقدم العلمي.. إننا في هذا الكوكب منذ ألفي عام، ولم تحدث حرب واحدة!!

– في مقابل ماذا؟! حياة باردة في ظل حكم شمولي، يجثم على أنفاسنا.

ارتسم الهلع على وجه «منير»، في حين تابع «أدهم»:

– كل شخص منا يأتي إلى الوجود ومعه مفاتيح شخصيته، من طول ووزن ولون شعر ونسبة ذكاء ووظيفة محددة سلفا حسبما يتراءى للحاكم.. تتم هندسته وراثيا وهو في مرحلة النطفة؛ ليأتي إلى الوجود ليسد حلقة ما في سلسلة طويلة يتلاعب بها الحاكم.. لا دخل له في طوله أو وزنه أو نوعه أو نسبة ذكائه..

– صه!! اصمت! اصمت!

– لماذا تأمرني بالصمت؟ أنا لا أقول سوى الحقيقة.. إن الأرض على

الرغم من الجشع والطمع والحروب التي دمرتها، ما زالت تحتفظ بشيء ثمين عجزنا نحن - على الرغم من تقدمنا - عن الحفاظ عليه.. كل شخص حر في فعل ما يريد، سواء أكان على صواب أم خطأ، وليس مجرد دمية في يد حاكم أو حزب مستبد يتلاعب بهم كما يشاء، ما زال عندهم إيمان بوجود خالق واحد لهذا الكون، يلجأون إليه في المحن والشدائد، لم يفعلوا مثلنا ويؤلهوا العلم وينبذوا وجود الخالق باعتباره ضربا من التجديف.

دمعت عينا «منير» ولم يجب..

- لماذا تبكي وأنت الذي أخبرتني بهذه الأشياء؟

- ويا ليتني ما فعلت!

لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفع أزيز خافت من جهاز على المنضدة، أشبه بتليفزيون صغير، فانتفض جسد «منير» والتفت إلى شاشته، ثم هتف في ذعر:

- لقد جاءوا.. رجال الحزب.. يبدو أنهم قد سمعوا حديثنا!!

وصرخ:

- اهرب أنت يا «أدهم».. اهرب!

* * *

تراجع المحقق في مقعده:

- «أدهم».. أنت متهم بالتلفظ بأشياء محرمة، ما كان لك أن تنطق بها..

رد بسخرية:

- أتقصد الكلام عن الأرض؟!

احتقن وجه المحقق بشدة:

- صدقني.. أنت تزيد من صعوبة موقفك.

واعتدل:

- كما أنك متهم بإهانة قيادات الحزب..

والتمعت عيناه في شراسة:

- وهذه جريمة عقوبتها النفي المؤبد.. إلى الجحيم!

قال «أدهم»:

- الجحيم؟! هل أصبحتم فجأة على إيمان بوجود الجنة والجحيم؟!

- إننا لا نؤمن بمثل هذه الترهات التي صبها العجوز في رأسك، لكنك سوف تعرف قريبا جدا ما قصدته!

صاح «أدهم» في لهفة:

- ماذا فعلتم بـ«منير»؟

- لقد نال عقابه بالفعل.. يوما ما في منفاك الأبدي ستتمنى لو فعلنا

المثل معك.

ارتجف جسد «أدهم»، وصرخ:

– هل قتلتموه؟! أيها الطغاة! ! أيها الأوغاد! !

طقطق المحقق بلسانه:

– إننا كوكب مسالم، لا يقتل أبدا يا عزيزي.. يبدو أن الخرافات التي تحشو عقلك عن الكوكب المحرم قد صورت لك أننا قد ننحدر لمستواهم من الهمجية والوحشية.

وأكمل في شماتة:

– لقد قمنا بإنهاء حياته منذ ساعة تقريبا، والأطباء يستعدون الآن لانتزاع أعضائه الحيوية لزرعها في أجساد من يحتاجونها من رجالات الحزب.

احمرت عينا «أدهم»، وهو يصرخ:

– أهذا ما تسمونه الرحمة؟!

رد المحقق في هدوء، غير مكترث لصرخاته:

– لا تجهد نفسك أكثر من هذا، لا شك أنك سوف تحتاج لكل ذرة من أعصابك في رحلتك المقبلة.

- ....

- سوف يتم ترحيلك بعد قليل إلى منفاك الدائم.. الكوكب المحرم!

هتف «أدهم» بانقباض:

- الأرض؟!

- بالتأكيد.. لا مكان أنسب منه لكي تتخلص من خطاياك!

وتابع:

- آه.. لقد نسيت أن أخبرك شيئا..

وأردف بشماتة:

- ما إن تطأ قدماك الكوكب المحرم، حتى تصير مثل قاطنيه.. الأوبئة والتلوث في غلافه الجوي ستؤثر حتما على خلاياك.. سوف تصاب بالهرم والشيخوخة، بعد سنوات قليلة.. لا مناعة إضافية.. لا قدرات خارقة.. لا ذاكرة عن حياتك السابقة هنا.. مجرد بائس آخر، كآلاف البؤساء الذين يقطنون الكوكب..

وتراجع في مقعده، مردفا في برود:

- وداعا إلى غير رجعة!

* * *

- 3 -

انتهى «أدهم» من روايته، واستكان جسده في الفراش، حتى بدا أشبه بالموتى، في حين اتسعت عينا الزوجة في دهشة وعدم تصديق..

فهي مثل غيرها من البشر الذين يقطنون الأرض منذ أكثر من خمسمائة عام، لم يسمعوا قط بكوكب «فرديس»..

كان الأمر بالنسبة لها أشبه بالحلم!

لكن الصدق الذي يغلف كلماته وضعها في حيرة بالغة!

وشك رهيب!!

فتح الزوج عينيه ثانية، وسرح قليلا ثم ابتسم، وقال كأنما يحدث شخصا ثالثا في الحجرة:

- لا يا عزيزي.

قالت:

- ما بك يا «أدهم»؟! هل تكلم نفسك؟!

رد:

- إنه «رمزي».. أحد رفاقي القدامى على «فرديس».. إنه معنا في الحجرة منذ البداية، لكنك لن تتمكني من رؤيته.. ألم أقل لك إنني لم أتذكر سوى منذ دقائق.. لقد جاء إلى هنا، وأعاد إليَّ ذاكرتي، ويخبرني الآن...

أن سياسات الكوكب قد تغيرت مع الحاكم الجديد.. سوف تعود العلاقات التجارية ثانية بين «فرديس» والأرض، سوف يتم تنظيم رحلات سياحية وتثقيفية بين الكوكبين.. ويخبرني أيضا أن الحاكم الجديد قد عفا عني، وأنه حزين من أجلي؛ لأن جريمتي لم تكن بمثل تلك البشاعة التي صار إليها عقابي.. وهو يدعوني الآن للعودة، سيقوم علماء «فرديس» بتنقية جسدي من الشوائب الأرضية وإصلاح الأعطاب التي ألمت به.. هل تفهمين؟ سوف أعود شابا من جديد يحيا لما يقرب من خمسة قرون جديدة، تحت سماء «فرديس»!

وأدار رأسه نحو جانب الحجرة:

– أتعلم يا صديقي العزيز؟ هناك شيء واحد فقط كان الحاكم القديم محقا فيه.. هو أنني قد كنت بالفعل طرفا في لعبة عادلة!!

لقد هبطت إلى الأرض، عانيت واسترحت.. ذهبت وجئت.. مرت عليَّ أيام كنت أحس فيها بمرارة العلقم في فمي.. وأخرى بحلاوة الشهد.. أحببت وتزوجت وأنجبت.. وها أنا الآن أموت..

وارتسمت ابتسامة واسعة على وجهه وهو يلتفت إلى زوجته، ويحتوي يدها بين كفيه، مردفا في حنان:

– أعتقد أنني قد نلت كل ما تمنيته بالفعل، ولا معنى أبدا لعودتي ثانية لـ«فرديس» للعيش من جديد!

* * *

المشهد الأخير

انطلق صفير الرياح في الخارج، وتطايرت ورقة منزوعة من جريدة، وتأرجحت قليلا في الهواء، قبل أن تهبط أرضا.

كان هناك مانشيت كبير مكتوب على صدر الصفحة:

العرض المسرحي الجديد..

«المشهد الأخير»..

يُعرض اليوم على المسرح الكبير بوسط البلد..

الدخول مجانا.

شخصيات المسرحية:

- الإمبراطور.
- حكيم القصر.
- قائد الجيوش.
- حراس وخدم وشعراء وجوارٍ.

* * *

الفصل الأول

«الستار يُزاح عن منظر قاعة واسعة داخل قصر منيف.. القاعة مصممة على طراز معماري غريب بعض الشيء.. أعمدة القاعة وسقفها وجدرانها مزدانة بنقوش سريالية عجيبة.. جوارٍ حسناوات على جانبي كرسي العرش».

الإمبراطور:

– لقد دانت لي كل الممالك المجاورة، وقريبا سوف يصبح العالم كلـه بين يدي.. أنشد أيها الشاعر.. اعزف أيها الموسيقي.. وغنِّ أيها المطـرب.. إن أمجادي سوف تأخذ مكانها قريبا مع النجوم العلوية في السماء.

وصاح: الشاعر.. أين الشاعر؟

الشاعر (يأتي مهرولا ويجثو على ركبتيه أمام العرش):

– أمر مولاي العظيم.

الإمبراطور:

– لم لا تنشد لمولاك أيها المأفون؟

الشاعر:

– أنت الشمس في مستقرها..

تأباك الكواكب إذا طلعتْ..

وتتأرجح خجلا في فلكها..

الإمبراطور (يهز رأسه في رضا ويلتفت إلى الحكيم الذي ظل صـامتا في جانب القاعة):

– وأنت أيها الحكيم العجوز.. دمر كل مخطوطاتك، وابدأ من الآن..

إنني أصنع تاريخا جديدا، سوف تصغي له الأجيال القادمة في لهفة.

الحكيم يخفض رأسه دون أن يتكلم.

قائد الجيوش (يدلف إلى القاعة وينحني أمام الإمبراطور):

- تحية لمولاي العظيم.. إمبراطور المشرق والمغرب.

الإمبراطور:

- ماذا وراءك يا قائد الجيوش؟

قائد الجيوش:

- إن جواسيسنا أبلغونا منذ قليل معلومات بالغة الأهمية عن مملكة «نوريس» المجاورة لنا يا مولاي.. يبدو أن قادتها قد يئسوا من مقاومتنا، فقرروا اللجوء إلى حل جذري للرد علينا (وصمت لحظة) باستعمال قنبلة «نوفا».

الحكيم (في رهبة):

- قنبلة «نوفا»؟ إنها سلاح رهيب قادر على محو مملكتينا في أقل من طرفة عين.

الإمبراطور (في ثورة):

- هراء.. إنني سوف أرد عليهم قبل أن يحركوا إصبعا واحدة، سوف أجعلهم عبرة لمن يجرؤ على مقاومتي (ورفع بصره إلى قائد الجيوش) ابدأ

عملية إسقاط قنابل البروتون عليهم.. الآن.

الحكيم:

- البروتون؟! لكن هذا سيمحو مملكتهم من الوجود يا مولاي.

الإمبراطور (بسخرية):

- إننا لسنا بحاجة لمزيد من العبيد.

الحكيم (في خفوت):

- لكنهم يا مولاي يدافعون عن حياتهم ووجودهم.. عن وطنهم.

الإمبراطور (يصرخ):

- الدرس الذي يجب أن يتعلموه هو أن إرادتي قانون.. قانون يجب أن يُطاع.. بلا تفكير، بلا تردد، بلا مناقشة.. في عهدي لا وجود لأوطان منفصلة، بل هناك راية واحدة فقط يتبعونها، ووطن واحد، أنا قائده.. ولاؤهم يجب أن يكون لي أولا (يسترخي ثانية على كرسي العرش) كما أن الموقع الذي تحتله مملكتهم يعد مناسبا جدا للقاعدة التي كنت أنوي إقامتها للانطلاق إلى عوالم السماء (يستطرد في سخرية) كما ترى أيها الحكيم، الطريق إلى السماء مخضب دائما بحمرة الخجل (يضحك في مجون).

ستار..

* * *

الفصل الثاني

يزاح الستار على المنظر السابق..

الإمبراطور (يدور في القاعة كالليث الجريح، وهو يردد كأنما يحدث نفسه):

– أولئك الهمج.. بعض الممالك ما زالت تأبى الاستسلام، والبعض الآخر كوَّنوا تحالفا خاصا فيما بينهم لمواجهتي (وصرخ في ثورة) مواجهة سيد العالم، لكنني سوف ألقنهم درسا لن ينسوه أبدا.

الحكيم (في تردد):

– مولاي.. لقد تحول سطح الكوكب إلى جحيم من كثرة الإشعاعات الذرية والأمطار الحامضية.. قد نكون انتصرنا في الميدان لكننا خسرنا كوكبنا بأكمله.. لقد ماتت النباتات وجفت الأنهار ونفقت معظم الحيوانات، و..

الإمبراطور (في انفعال):

– وماذا يا حكيم العرش؟ لو أنني سرت على نهجك المتخاذل هذا منذ البداية لتحولت مملكتنا العظيمة إلى فريسة سهلة تتقاسمها الممالك المجاورة بين أنيابها.. ارجع إلى كتبك ومخطوطاتك التي تعلمها للأجيال.. ارجع إلى التاريخ.. الضعيف يصبح – دوما – لقمة سائغة يلوكها الأقوياء في أفواههم، وإلا عاث في الأرض فسادا بدافع من حقده الدفين وعقده الخاصة

المكبوتة، إن لم يجد رادعا يوقفه عند حده.. (يشير بإبهامه) افهم هذا.. لكي تستقيم الحياة نفسها لا بد من وجود القوي الذي يقوِّم الضعيف ويقوده إلى الحرية.. ولا بد من وجود الضعيف لكي يشعر القوي بمسئوليته تجاهه، إنها نواميس الكون، لا مساس بها.. الشمس تؤثر على الكواكب وتجذبها نحوها باستمرار.. وإلا شردت في غياهب الفضاء وفنيت عن بكرة أبيها.

الحكيم (الذي لم يستطع كظم غيظه أكثر من هذا):

– بل اعلم أنت هذا أيها الإمبراطور.. كلامك هذا لا يقنع طفلا صغيرا، ولا شخصا عاقلا يؤمن بأن كل شعب له الحق في تقرير مصيره، ولن يقبل أي شخص حر مثل هذه الوصاية المشكوك في أمرها التي تتشدق بها طوال الوقت والتي تنوي فرضها بالقوة.. الأحق بهذه الوصاية على عباده هو الخالق – عز وجل – لكنه – تصوَّر هذا – لم يحاول – وهو قادر على ذلك – أن يفرض الإيمان به على البشر، بل خاطبهم باللين والدليل السماوي عبر من اختارهم من أنبيائه ورسله.. من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.. ثم حساب من أبى بعد ذلك يكون عند خالقه يوم لا ينفع مال ولا سلطان..

الإمبراطور (يقاطعه في غضب):

– صه! أنت وتفكيرك الرجعي، وأفكارك الصوفية المتخلفة، يبدو أنني قد أخطأت كثيرا بإبقائك في منصبك.. أيها الحراس (يدلف ثلاثة

حراس إلى القاعة، وينحنون أمامه في خنوع) ألقوا هذا الجبان في السجن حتى أنظر في أمره.

الحكيم (يصرخ):

– اعلم هذا.. أنت تقود شعبك وكوكبك بأكمله إلى نهايته، جشعك وطمعك صورا لك أن...

الإمبراطور (يقاطعه في ثورة، وهو ينزع مسدسه ويصوبه نحوه):

– اخرس! (وأطلقه نحوه بالفعل) خائن!

الحكيم (يخر مضرجا بدمائه، وهو يتمتم):

– لقد انتصرت على جسدي، لكنك لم تنتصر على صوت الحق داخلي (يلفظ أنفاسه الأخيرة).

الإمبراطور (إلى الحراس):

– ألقوا بجثة هذا الخائن في العراء؛ لتلتهمه الذئاب الضالة.

قائد الجيوش (يدلف إلى القاعة مسرعا، تتسع عيناه في دهشة عندما يرى جثمان الحكيم مضرجا في دمه، ثم يتمالك نفسه في سرعة):

– مولاي..

الإمبراطور:

– ماذا وراءك يا قائد الجيوش؟

قائد الجيوش (في توتر):

– مملكة «روشان» قد حشدت كل قواتها، وقضت على حلفائنا في «راند – 3»، وهم يستعدون الآن لشن هجوم شامل علينا.

الإمبراطور (في جنون):

– الأوغاد! الأوغاد! (يردف كأنما يحاور نفسه) لقد حاولت أن أصنع منهم شيئا... أن أضمهم تحت لوائي.. أن...

قائد الجيوش (يقاطعه في انفعال):

– مولاي.. قرارك.

الإمبراطور (يتطلع إليه لحظة، وبدا كأنه يقلب الأمر في ذهنه أكثر من مرة):

– أطلق كل مخزوننا من الأسلحة النووية.

قائد الجيوش (في ذعر):

– لكن يا مولاي...

الإمبراطور:

– نفِّذ يا قائد الجيوش.

قائد الجيوش (وهو ينسحب من القاعة في بطء):

– أمر مولاي الإمبراطور.. أمر مولاي!

ستار..

* * *

الفصل الثالث

«الظلام يخيم على خشبة المسرح، بينما ذرات الغبار تغلف كل شيء، والصمت.. الصمت الرهيب يخيم على المكان..

وتسلل شعاع ضوء خافت ليلقي بنوره على بعض الجثث المتحللة التي افترشت الأرض. وارتفع نعيق غراب أسود ضخم يقف على تبة صغيرة، ويرنو بعينيه إلى الأفق المكفهر..

وردد الصدى نعيقه الحاد، الذي بدا وكأنما يجوب الكوكب الخالي بأكمله».

النهاية.

* * *

ارتفع صوت تصفيق حاد من الجماهير في المسرح الكبير، وأضيئت الصالة بأضواء مبهرة، فنهض الجماهير من مقاعدهم لتحية الممثلين.

كانوا أغرب مجموعة من الجماهير يمكن أن يراها بشري..

مخلوقات ذات بشرة خضراء.. آذان مدببة.. وأجنحة صغيرة تنبت من ظهورها..

مال أحد تلك المخلوقات الصغيرة على والده، وسأله بلغة غريبة تشبه نقيق الضفادع:

– أبي.. هل من الممكن أن يكون طمعهم وجشعهم قد وصلا بهم إلى حد إفناء حضارتهم؟! إن آثارهم التي وجدها علماؤنا عند هبوطنا على الأرض منذ خمسمائة عام تدل على أنهم كانوا مخلوقات عاقلة.. امتلكت تقدما علميا لا بأس به أبدا.

رد والده في هدوء:

– للأسف يا ولدي.. إن مشاهداتنا الكثيرة أثبتت – بما لا يدع مجالا للشك – أن الطمع والسعي للتدمير صفتان سائدتان في كل المخلوقات العاقلة.. أتتصور ذلك؟! المخلوقات العاقلة وحدها هي من تسعى للسيطرة على بعضها في حروب طويلة، مضحية بكل شيء يمكن أن تتصوره في سبيل ذلك!

– هل يمكن أن نصل نحن أيضا إلى هذا الحد؟

– نتمنى ألا يحدث هذا أبدا.

وابتسم:

– هيا.. انهض معي لتحية المثلين.

دوَّت عاصفة أخرى من التصفيق عندما ظهر طاقم الممثلين على خشبة المسرح، وهم ينحنون في هدوء أمام الجماهير.. ثم وقفوا في صف أفقي على خشبة المسرح، ومد كل واحد منهم يده ينزع الزي والقناع الذي يرتديه؛ ليظهر تحتهما ملامحه الأصلية..

البشرة الخضراء..

الآذان المدببة..

الأجنحة الصغيرة خلف ظهورهم..

والصغير يتابع في جذل:

- لقد كانت مسرحية رائعة!

وفي الخارج، بدا وكأن الكوكب المحتضر ينعى الانقراض الأخير الذي حل بقاطنيه الأصليين من البشر!

* * *



الملاك يهبط!

غاصت الشمس في الأفق ناحية الغرب، واصطبغت السماء بلون قرمزي داكن، ولم تلبث السحب المتباعدة أن تقاربت في بطء، وتحول رذاذ الماء المتطاير إلى أمطار غزيرة منذرة بليلة عاصفة طويلة.

وعبر السهل الذي غطته الأعشاب الجافة والنباتات الميتة، بدت صومعة منخفضة مصنوعة من الطمي والخوص، يتصاعد منها دخان أسود كثيف.

وداخل الصومعة، جلس ثلاثة رجال يصطلون حول بقايا الأخشاب المتفحمة، وبدا عليهم الكثير من التوتر بينما الرياح في الخارج تواصل زئيرها المخيف.

انفرجت شفتا أكبر الرجال سنا، ويدعى «ك»:

– في الماضي السعيد، كان كل البشر على اختلاف طوائفهم وأجناسهم وألوانهم مرتبطين بعقائد مختلفة.. يؤمنون بها، بل يَقتلون ويُقتلون دفاعا عنها، على الرغم من أن معظمهم كان أبعد ما يكون عن ممارسة شعائر تلك العقيدة التي ينتمي إليها.. قد كانت ضرورية لهم.. يأوون إليها وقت المحن، يستظلون بها في الشدائد.. كانت أكثر أهمية لديهم من المنازل والفيلات الفاخرة

التي تؤويهم.. من السيارات والطائرات.. من وسائل الإعلام و«الميديا»، من كل فروع التكنولوجيا.. حسنا.. كان هذا في الماضي، ثم جاء عصرنا نحن.. عصر كانت للتكنولوجيا فيه اليد العليا.. عصر الآلية والمعلوماتية.

لقد ورثنا ضمن ما ورثنا من أجدادنا عالما صلدا خاليا من أي دفقة وجدانية تمنحنا القدرة على التواصل الروحي فيما بيننا!

عصر قضينا فيه على الدين باعتباره ضربا من الخرافة والتجديف بعد أن سيطرنا على أدوات عالمنا - كما اعتقدنا وقتها - فيما يعرف بـ«النيرفانا التقنية»، كما وصفها أحد مفكرينا.. عصر الكفر والإلحاد.

قال آخر، ويدعى «و»:

- أنت تقول هذا يا عزيزي «ك».. لكن لا تنكر أن هذه التكنولوجيا التي ترفضها هي التي أتاحت لنا السيطرة على الطبيعة من حولنا.

رد «ك»:

- وماذا كانت النتيجة؟! لقد اعتقدنا أننا فهمنا الكون من حولنا.. مجرد معادلة طرفاها في حالة اتزان.. علة ومعلول، نسبة وتناسب.. لكننا عجزنا حتى عن فهم أنفسنا، فانجرفنا في نزاعات وخلافات قبلية، مما أدى إلى نشوب الحرب العالمية الثالثة، التي أتت على كل ما أنجزناه من حضارة اعتقدنا في يوم من الأيام أنها خالدة.

وتنهد:

- وها نحن الآن بعد كل ما حققناه من تقدم، مجرد كائنات بدائية تتدثر بجلود الحيوانات وتصطلي بالأخشاب والقوالح..

بل إن الإنسان البدائي القديم كان أفضل منا، بنعمة الروحانية والتوحيد لخالق هذا الكون.. تلك النعمة التي طمسناها من عقولنا منذ زمن.

قال الثالث «ي» ساخرا:

- ما هذا يا عزيزي «ك»؟ هل تحولت فجأة إلى فيلسوف، أم أن الجوع الشديد قد أثَّر على خلايا مخك؟! لاحظ أن الطعام قد أصبح شحيحا هذه الأيام، ونحن بالكاد نجد ما يكفي لسد رمق بقية القبيلة.

- لا هذا ولا ذاك.. إن الحياة التي كنا - وما زلنا - نحياها لم تكن أبدا كافية لجعلنا سعداء..

لقد قال السيد المسيح منذ أكثر من ألفي عام: إنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

هتف «ي»:

- ترى هل كنت ستواصل التغني بتلك اللهجة الصوفية المبتذلة لو لم تنتهِ الحضارة كما نعرفها في الحرب الأخيرة؟!

أجاب «ك»:

– لا علاقة لما أقوله بما وصلنا إليه الآن.. لقد عشنا أسوأ وأحط عصور التاريخ، بما فيه من كفر وإلحاد وجحود للخالق – عز وجل – لقد اعتقدنا أن بيدنا مقاليد الأمور نسيِّرها كما نشاء بحكمتنا..

لكن ماذا كانت نتيجة تلك الحكمة الزائفة؟ أكبر نسبة فساد وانحطاط أخلاقي، وأعلى نسبة انتحار عايشناه.. لقد فسَّر القرآن ذلك منذ أكثر من ألف وخمسمائة عام، واصفا تلك الحالة التي نعيشها، في قوله تعالى: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا».

قال «و»:

– لكن ماذا لو تبنينا وجهة نظرك هذه – أي «ك»؟ هل سيعيدنا تديننا هذا إلى ركب الحضارة من جديد؟!

– هذا ما لا أشك فيه للحظة واحدة؛ فالحضارة عندي ليست مجرد تقدم تكنولوجي وتقني فقط، وإنما تقدم في الأخلاق والمثل كذلك.

هتف «و» محنقا:

– وماذا يا هذا؟! انفض عن رأسك تلك التخيلات والأوهام، وافتح عينيك عن آخرهما، إننا لسنا بحاجة لمثلك وأخلاقك هذه، إننا بحاجة للسكن والملبس والطعام.. أطفالنا في الأكواخ المجاورة يتضورون جوعا بعد أن

شح الطعام وجفت الأنهار، وإن لم نفكر جديا في حل سريع فسوف نقودهم إلى حتفهم خلال أيام قليلة.

وصاح «ي» بتحدٍ أكبر:-

- لو أنك مؤمن حقا بكلامك هذا، فادعُ لنا ربك ليوفر لنا الطعام الكافي لأطفالنا.

قال «ك» في غضب:

- من العار أن نضع الخالق - عز وجل - في موضع اختبار.. لو فعل هذا لفعلنا هذا، لو لم يفعل ذلك لما فعلنا ذلك..

وأردف بخفوت:

- إن ما أنشده وأرجوه الآن من الله - سبحانه وتعالى - هو دليل.. دليل واحد يبدد الليل الطويل الذي يجثم على صدورنا.. إشارة تلقي النور في النفوس التي أضلها الكبر والغرور الزائف.

همَّ «و» بالتعقيب، عندما اندفع بعض الأطفال إلى الصومعة، وصاح أحدهم في رهبة:

- هناك شيء لا بد أن تروه!

نهض الثلاثة في لهفة خلف الأطفال، حتى بلغوا حفرة غائرة خلف الأكواخ الكثيرة المنتشرة في المكان.. وقد امتلأت الحفرة بالطمي والأوحال..

وراح الجميع ينظرون في استغراب إلى الجسد الراقد داخل الحفرة..

كان مخلوقا يشبه البشر في تكوينه وملامحه، لكن طوله كـان ينـاهز الثلاثة أمتار، وشعره الذهبي ينساب على كتفيه بلا تنسيق..

أما الشيء الأغرب والأعجب فكان عبارة عن جناحين عملاقين ينبتان من ظهره، وقد ضمهما حول جسده في ضعف، كعصفور صغير مبتل!

هتف أحد الأطفال في رهبة، وهو يرفع يده لأعلى:

– لقد هبط من السماء!

قال «ي» بسخرية:

– ها هو الدليل الذي كنت تنشده يا عزيزي.. الشمعة الـتي تمنيتهـا لتبدد الظلام الجاثم على صدورنا.. أحد المخلوقات التي تعـشش في معتقـداتك الصوفية.. ماذا أقول؟ ملاك؟!

رد «ك» في حدة:

– إنه ليس كذلك بالتأكيد.. إن الملائكة كائنات نورانية خلقهـا الله – سبحانه وتعالى – لعبادته، ولن تسقط هكذا في الأوحال.

عاد «و» يسأله:

– ما هذا الشيء – في رأيك – إذًا؟!

فكر «ك» لحظة، تطلع فيها إلى ذلك الكائن الذي تأوَّه في خفوت، بينما عيناه تتابعان الحشد من حوله في صمت، ثم هز كتفيه مغمغما:

– لا أعلم.. ربما كان كائنا من كوكب آخر!

واقترب منه في حذر، فمدَّ «و» يده يمنعه في انفعال، لكن «ك» أزاح يده في رفق، ودنا من المخلوق، ومال نحوه هامسا:

– من أنت؟ وكيف جئت إلى هنا؟!

أخذ هذا الأخير يغمغم بكلمات متداخلة خافتة، فأرهف «ك» السمع أكثر، ولم ينتبه إلى النظرات التي تبادلها رفيقاه في صمت.. كانت المعلومات الثمينة تتدافع من عقل المخلوق إلى عقله في سرعة.. رآه – فيما يشبه الحلم – وهو ينطلق من كوكبه البعيد، في رحلة طويلة إلى الأرض، وعرف الهدف النبيل الذي أتى من أجله، بعد أن مزقت الأطماع والحروب الكيان البشري وفرقت بين أبناء الجنس الواحد.

ولم يفق إلا ورفيقاه يجذبانه للخلف في حدة مباغتة، وأحدهما يطيح به أرضا صارخا:

– ابتعد أنت يا «ك»..

وأردف الثاني، وهو يقترب من المخلوق الراقد، وفي يده سكين حادة:

– أخيرا وجدنا مصدرا مناسبا لإطعام أطفالنا!

صرخ «ك»:

– لا! أنتما لا تفهمان شيئا!

لكنهما تكالبا على المخلوق العاجز، وانقضا عليه في شراسة، بينما «ك» يواصل صرخاته:

– لا! لا!

ومن وضعه الراقد أرضا، التقت عينا «ك» بوجه ذلك المخلوق..

مخلوق بائس وحيد ظن أن بإمكانه أن يصنع فرقا، لكنه دفع حياته ثمنا لهذا!

وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، بينما دماؤه تنساب على الأرض في غزارة، التفت المخلوق نحو «ك»، ورأى هذا الأخير شفتيه تتحركان في بطء:

– لا بأس!

ولفظ أنفاسه الأخيرة في سرعة، في حين كان «ك» يبكي في حرقة بالغة:

– ليتهم يعلمون! ليتهم يفهمون!

بينما الليل الطويل يردد صدى صرخاته!

* * *

«روبي» الصغير!

أمس وبَّخني أبي بشدة على صراخي المستمر ليلا، وحرمني من مشاهدة أفلام الكرتون التي أحبها!

قلت له باكيا:

– أرجوك يا أبي.. لن أصرخ ثانية!

لكنه لم يستمع إليَّ أبدا..

لا أدري ماذا أصابني بالضبط!

إنها تلك الأشياء التي أراها ليلا، والتي تصيبني بالرعب الشديد..

ذات يوم، سمعت أمي تصف تلك الأشياء بالكوابيس، وأنها تزور أولئك الأشخاص الذين يتناولون كميات كبيرة من البروتين على العشاء.

ولكنني لا آكل مثل هذه الأطعمة أبداً.. أمي تمنعني من ذلك دوما.. وتقول إنها تسبب المرض..

ذات مرة، انتهزت فرصة وجود أمي في الحمام، ثم وضعت بضع لقيمات من ذلك الطعام الدسم في جوفي.. حسنا.. يكفيني ما نِلتُه من تقريع وتوبيخ، والفترة التي قضيتها للنقاهة في عيادة «د. لطفي»!

نظرت إلى أمي نظرة استعطاف، لكنها أشاحت بوجهها عني، بينما شفتاها تردان:

– لا بد أن نستدعي «د. لطفي» لفحصه!

* * *

جاء «د. لطفي» إلى حجرتي، وكشف عليَّ في تأنٍّ، ثم طفق يتفحصني بعينيه لمدة ساعة كاملة، وأنا أداعب قطتي الصغيرة «ناني».. أنا أحب قطتي جدا، وأتمنى أن ألعب معها طوال الوقت.. لكن أمي كانت تمنعني من اللعب معها ليلا.

كنت أداعب «ناني» في مرح وأنا أتعمد تجاهل الطبيب حتى يدعني وشأني ويرحل سريعا.

ولم أتوقف عن اللعب حتى سمعت وقع خطواته وهو يغادر الحجرة.

ومن وراء الباب، سمعته يقول لأمي:

– لا أدري ما الذي دهاه بالضبط.. إن عمره الفعلي هو ست سنوات فحسب، وتلك الأشياء التي يرويها تتخطى سنوات عمره بكثير!

– ماذا تعني؟ أقصد.. ألديك تفسير لما أصابه يا دكتور؟!

– يبدو أنه قد أصيب بمرض نفسي!

شهقت أمي مرددة:

– مرض نفسي؟!

عدت إلى مكاني ثانية، وأنا أردد بحيرة:

– مرض نفسي؟!

أنا أعرف معنى كلمة مرض.. وهي أن يرقد الشخص في فراشه بلا حراك، وترتفع درجة حرارته.. لقد رأيت شيئا مماثلا في التليفزيون.. عندما سقط القط «توم» – ذلك الأحمق – في الجليد، بعد فخ محكم من الفأر «جيري».. لكم ضحكت يومها على «توم» – ذلك الغبي – عندما ارتفعت حرارته حتى تصاعد منه دخان كثيف.. هاهاهاها... ذلك القط الساذج الذي...

لكنني لم أقع في الجليد.. ثم ما معنى كلمة «نفسي»؟!

إلا أنني نفضت هذه الأفكار عن رأسي، وتناولت إصبع طبشور ملقى أرضا، وبدأت أخط الدرس الجديد على السبورة..

قطتي صغيرة..

واسمها نميرة..

شكلها جميل..

ذيلها طويل..

لعبها يسلي..

وهي لي كـ.. كـ.... سحقا!

لقد نسيت!

* * *

انطلقت صرخاتي تزلزل أرجاء المكان، فانتفض جسدي في ذعر.

أرسلت بصري إلى الأمام لأجد أمي تميل على فراشي في قلق، بينما أبي يقف أمام النافذة وقد عقد كفيه خلف ظهره.

سألتني أمي في ذعر:

– ما بك يا عزيزي؟ لماذا تواصل صرخاتك هكذا؟

رفعت بصري إليها، وتمتمت بصوت خافت:

– لكنني لم أصرخ قط!

* * *

في وقت لاحق، بدأت تلك الأشياء التي أراها ليلا – التي أطلقت عليها أمي اسم «الكوابيس» – تزداد بكثافة غير عادية..

كنت أجد نفسي واقفا في ساحة واسعة، وقد تغطت الأرض بجثث الموتى بينما الدخان الكثيف يغلف كل شيء حولي برداء سميك!

وفجأة، تمد إحدى الجثث يدها نحوي في استعطاف:

– أ.. أرجوك.. سـ... ساعدني ي ي.

وعند هذه اللحظة، ينطلق صراخي مبددا سكون الليل، وأفتح عيني على حجرتي المعتادة.. أتلمس الموجودات حولي في لهفة، أحيانا أشعر أنني لن أعود ثانية إلى عالم الواقع..

لم أعد أميز بين الواقع والخيال..

أصبحت أعجز عن تذكر دروسي المعتادة..

بدأت ذاكرتي يصيبها الارتباك..

لا أدري حقا ماذا أصابني!

رفعت عيني إلى أمي الباكية، وسألتها في حيرة:

– من أنتِ؟

* * *

اليوم اصطحبني رجل غريب يصر على أنه والدي إلى مصحة نفسية لمن يدعى «د. لطفي».

لا أدري لماذا يبدو هذا الاسم مألوفا إلى حد كبير..

طلب مني «د. لطفي» أن أدوِّن اسمي وسني على ورقة صغيرة.. ضحكت كثيرا.. يا له من سؤال سهل..

اسمي هو «روبي»، وعمري ست سنوات.

وصممت على أن ألقن هذا الساذج درسا لن ينساه، وتناولت القلم

وهممت بكتابة اسمي، و...

لكنني لم أستطع الكتابة..

لم أستطع أبدا!

* * *

أجلس وحيدا داخل حجرة صغيرة..

ومن آن لآخر، يأتي رجل غُريب ليطمئن عليَّ..

لقد قال لي ذات مرة إن اسمه «د. لطفي»، ويصر على أنني أعرفه من قبل..

يبدو أن به علة ما؛ لأنني لا أعرفه أبدا!

أتركه عند الباب، وأذهب إلى جانب الحجرة البعيد، وأرفع رأسي لأعلى..

هناك برص صغير يمرح على السقف..

مددت يدي بعصا طويلة وأسقطته أرضا..

يبدو أننا سنمرح قليلا..

وفي الخارج، يتعالى مواء قطة صغيرة، تعبث بصناديق القمامة..

أنا لا أطيق القطط!

* * *

قـال «د. لطفـي» وهـو يـضغط علـى زر الإيقـاف في جهـاز العـرض الهولوجرافي:

– كان هذا آخر ما تم تسجيله لـ«روبي» الصغير!

وواجه الأب بجسده كله، وهو يضيف متسائلا:

– هل لديك تفسير لما حدث؟

أطرق الأب برأسه لحظة:

– أجل.. لكنني لم أكن أعلم ما يجب عليَّ أن أتوقعه.. للأسف!

كرر «د. لطفي»:

– للأسف؟!

أومأ الأب برأسه:

– أنت تعلم أنه وعلى الرغم من ظروفه الخاصة، فإن «روبـي» يملـك ذكاء طفل في السادسة من عمره، وأنا وزوجتي كنا مكلفين من قيادات الحزب برعايته كأنه ابننا بالـضبط. كنـا مـسئولين عـن تربيتـه وتعليمـه وتلقينـه، حسب برنامج تثقيفي متقدم.

وأردف:

– ومنذ شـهر واحـد فقـط، بـدأت بتلقينـه كـل شـيء عـن أساسـيات الحياة: الخلق.. الكون.. تاريخ الجـنس البـشري علـى الأرض بمـا فيـه مـن

حروب ومجاعات وأوبئة، و...

قاطعه صارخا:

- رباه! هل أقدمت على هذا فعلا؟!

- أجل.. ماذا في هذا؟!

صاح «د. لطفي» في حدة:

- هل لقنت طفلا في السادسة من عمره كل تلك الحقائق عن المجازر والحروب والقلاقل التي تحدث في العالم؟! إن طفلا في مثل سنه لا يفكر إلا في الشمس والزهور والمستقبل المشرق، وأنت تفتح عينيه على كل تلك الأشياء البغيضة دفعة واحدة!

غمغم الأب في ارتباك:

- لقد تصورت أنني أستطيع أن أسبق الجدول المحدد عن طريق الإسراع بتلك الخطوة.. ثم.. ثم إننا لا نتعامل مع طفل عادي بالمعنى المعروف، وإنما...

قاطعه «د. لطفي» بثورة:

- وإن يكن.. إن ذكاءه هو ذكاء طفل في السادسة.. كل ما يعرفه عن نفسه هو أنه مجرد طفل في السادسة وأنت والده.. لا أكثر ولا أقل.

وزفر:

- وأنت أقحمت على عقله الصغير كل تلك الأشياء المنفِّرة التي لا يجب على طفل في مثل سنه أن يعرفها!

الحروب.. المجاعات.. الأوبئة..

لقد طاردته الكوابيس، حتى فقد عقله.. أصابه الجنون عندما لم يتحمل ما كان عليه أن يتوقعه!

وشد قامته، مردفا:

- سيتوجب عليَّ أن أرفع ما فعلتَه إلى قيادات الحزب.. الليلة.

انتفض جسد الأب في رعب:

- سيدي.. «روبي» الذي تتحدث عنه طوال الوقت ليس سوى...

قاطعه «د. لطفي»، وهو ينهض من مقعده، ويتجه نحو الباب:

- أجل.. أفهم ما تريد قوله.. لكن على الرغم من قدرات «روبي» وذكائه، فهو لم يستطع تحمل جزء يسير من الأثقال التي نتحملها - كبشر - على أكتافنا طوال الوقت..

ولا يستطيع روبوت - مهما امتلك من قدرات الذكاء الصناعي - أن يتحملها.. مثلنا!

والتفت إليه وهو يمسك مقبض الباب:

- حتى لو كان هذا الروبوت هو «روبي» الصغير!

* * *



الحكمة الضائعة

ارتجت سفينة الفضاء بشدة، وأخذت تدور حول نفسها في مدار حلزوني، و«حورس» - كمبيوتر السفينة - يردد طوال الوقت:

- تحذير.. عطب في غرفة المحركات.. الجهة الشرقية من السفينة تحطمت تماما، الهواء يتسرب بسرعة.. أكرر، عطب في...

ضغط الكابتن «سالم محمود» على شفته السفلى بأسنانه حتى كاد يدميها، وعيناه تجوبان الفضاء، وشعر كأنه فأر وقع في المصيدة.

شعر بالدماء تتدفق إلى عروقه ثانية، مع صوت «حورس»:

- هناك كوكب ذو غلاف جوي على بُعد ميل فضائي..

صاح الكابتن «سالم» بغتة:

- «حورس».. أطلق مجس الأرصاد الجوية.. بسرعة!

مع نهاية عبارته، انطلق المجس بسرعة كقذيفة مدفع نحو الكوكب، وبعد دقائق انتقلت المعلومات الثمينة إلى «حورس»، ومنه إلى الرواد الأربعة..

ردد عالم الفيزياء الفلكية «صلاح رفعت»:

- الهواء.. الجاذبية..

في حين أكمل المهندس «عامر سليمان»:

- عجبا.. إنه يماثل الأرض.. نسبة الهواء والجاذبية.

كان الكابتن «سالم» يبذل جهدا مضاعفا للسيطرة على حركة السفينة ومحاولة توجيهها لمسار ذلك الكوكب، لكنها ظلت تتأرجح في مدارها مبتعدة عنه في بطء.

- فضاء غريب.. نحن الآن في نطاق فضاء غريب.

كذا صاح «حورس» في رتابة آلية.

- ماذا تعني؟ هل هو فضاء فائق (Hyper space)؟

تساءل الرياضي «أمجد حسني» في توتر.

توقف «حورس» لحظة، فهو على الرغم من تعقيده واكتماله المدهش غير قادر على تصنيف أشياء لم يخبرها من قبل.

صاح الكابتن «سالم» بعصبية:

- «حورس».. إنك لم تُجب السؤال بعد؟

- كابتن.. إنه يشبه الفضاء المنحني الذي يحيط بالثقوب السوداء والنجوم ذات الكثافة العالية، لكنه...

شعروا عند هذه اللحظة بالسفينة وهي تقترب في بطء من الكوكب مرة أخرى..

- يا إلهي! هناك شيء ما يجذبنا ببطء نحو الكوكب.

- إنه ذلك الفضاء.

- لكنه لم يكن موجودا من قبل وإلا لاحظنا تأثيره على المجس.

- الأفضل أن نركز جهودنا الآن لتأمين عملية الهبوط.

كانت السفينة الآن تخترق الغلاف الجوي للكوكب بينما مجساتها تعمل بسرعة فائقة لتحليل كل شيء، وبدأت معالم الكوكب تتضح تدريجيا.

صاح «عامر» بغتة:

- عجبا..

وأشار بإصبعه:

- أنا أرى أفريقيا ومعظم أوروبا، وهذا هو المتوسط. يا إلهي.. إنه كوكب الأرض.

ردد الكابتن:

- الأرض؟!

كانت السفينة تهبط بسرعة رهيبة.. واتسعت العيون في ذعر..

كانت المحركات كلها قد توقفت تقريبا.. وأدرك الكل أنها النهاية، وأنها آتية لا ريب.

وفجأة.. برقت عينا الكابتن:

- مظلات الهبوط.. «حورس».. عليك بمظلات الهبوط.. أجل.. كلها.

لم يكد يتم عبارته حتى انفتحت المظلات بسرعة.

وفي اللحظة التالية، حدث الاصطدام.. كان عنيفا قويا، على الرغم من أن المظلات قد تحملت الجزء الأكبر من الصدمة، واندفعت السفينة على سطح الكوكب بسرعة رهيبة لمائتي متر تقريبا، واصطدمت في طريقها بصخور كثيرة ثم لم تلبث أن انقلبت على جانبها وتوقفت تماما.

وعمَّ المكانَ صمتٌ مهيبٌ لدقائق طويلة قبل أن يرتفع أزيز خافت وينفتح باب السفينة في بطء.

قال الكابتن «سالم»:

- سوف نستخدم السفينة كقاعدة لنا من الآن فصاعدا.. ستكون بمثابة نقطة انطلاقة نرسل منها بعثاتنا لاستكشاف الكوكب والبحث عن أي شيء صالح للأكل، والأهم من ذلك إيجاد مصدر للماء.

وتنهد:

- في حين سيبقى «عامر» داخل السفينة ويحاول تشخيص العطب وإصلاحه.

وأدار بصره إلى رفيقيه «صلاح» و«أمجد»:

- هيا بنا.

* * *

للوهلة الأولى شعروا كما لو كانوا قد رجعوا بالزمان إلى الوراء..

أو أنه الزمان نفسه قد رجع بهم.. لا يهم.

الهواء النقي المشبع بالأوزون وضوء ودفء الشمس الفتية..

الجو البكر الذي لم يتلوث بالغبار الذري أو نفايات الحضارة..

كل هذا بعث في أجسادهم قشعريرة باردة أشد ضراوة من الثلج..

كانت هناك خاطرة غريبة تتلاعب أمام عيونهم طوال الوقت، وإن خشيت ألسنتهم من الإفصاح..

كل شيء في هذا الكوكب يماثل الأرض بدقة مذهلة، على الرغم من البدائية الواضحة التي يتميز بها الأول عن الأرض..

فهل سافروا بالفعل إلى الماضي.. ماضي الأرض؟

ويبدو أن هذا بالفعل ما كان يدور بخلد الكابتن، فهز رأسه في عنف:

- هيا إلى العمل.

* * *

توقف الثلاثة مكانهم ذهولا وانبهارا..

لم يكن كوكبا مهجورا كما توقعوا.. بل كانت هناك حضارة بدائية قديمة، قائمة على الزراعة واستخدام الحيوانات المستأنسة في أعمال الجر والنقل..

أما سكان الكوكب فقد كانوا أكثر إثارة للدهشة..

فبخلاف ملامحهم وتصرفاتهم البشرية المثيرة للريبة، كانوا كلهم من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين السابعة والعاشرة.. لا يوجد بينهم فرد بالغ..

كانت هناك أفكار كثيرة تعتمر عقول الرواد الثلاثة، بينما هم يسيرون تجاه القرية..

الكوكب كله يثير الدهشة منذ البداية، بدءا بالفضاء الغريب المحيط به، وتطابقه التام في مناخه وتضاريسه مع الأرض، مرورا بسكانه الأطفال وشكلهم البشري وعدم وجود أفراد بالغين..

كانت القرية كلها أشبه بواحة خضراء بين جبلين، والشواهد الأولية تدل على أن الكوكب ما زال في مرحلة الزراعة، أي أنه ما زال على الدرجة الأولى في ركب التطور المادي..

كانت مباني القرية كلها مصممة من طابق واحد.. مساكن ريفية

بسيطة مصنوعة من الطوب اللبن، وتنتشر في مساحات واسعة بطول القرية، وأمامها في السهل الواسع الممتد حتى الأفق تنتشر طواحين الهواء وطلمبات المياه..

كان سكان الكوكب الأطفال منهمكين في أعمالهم الزراعية اليدوية، عندما مر بهم الرواد الثلاثة.. الغريب في الأمر أن أحدا منهم لم يلتفت إلى الرواد، على الرغم من اختلاف ملابسهم وما يحملونه من أجهزة تكنولوجية غريبة..

«صدمة حضارية!»..

لا يدري الكابتن «سالم» لماذا ضرب هذا التعبير في عقله..

لطالما فكَّر العلماء والفلاسفة في اللقاء الأول بين جنسين عاقلين من عالمين مختلفين، يفوق أحدهما الآخر علميا وحضاريا، وكيف أنه سوف يحمل إحباطا شديدا للجنس الأقل علما، أو كما ساق العالم النفسي الكبير «يونج» يوما..

إلا أن ما رأوه من سكان هذا الكوكب الآن يجافي هذا المصطلح بشدة..

مظهرهم وتصرفاتهم تدل على أنهم مخلوقات عاقلة تدرك ذواتها جيدا، فكيف يكون رد فعل مخلوق عاقل إزاء ظاهرة غريبة تواجهه للمرة الأولى؟

الذهول والدهشة.. الحيرة.. التساؤل.. ثم الاستدلال، لكنهم على عكس المنتظر لا يولونهم أدنى اهتمام كأنهم لا وجود لهم على الإطلاق.. إلا أن أحد سكان الكوكب تطلع إليهم لحظة بنظرة خاوية، ثم أشار بيده وانطلق بخطوات سريعة، وهم من ورائه في تردد..

وفي أثناء توغلهم في القرية، جذب انتباههم شيء آخر غريب.

فعلى عكس المنازل البدائية البسيطة الخالية من أي نوع من الكماليات الشكلية أو الجمالية، كانت تنتشر أمامهم في مساحة واسعة، على الصخور التي تحيط القرية، نقوش كثيرة رائعة وحجارة منحوتة بأشكال مبهرة.

اقترب الثلاثة من النقوش وتحسسها أحدهم بيده، ثم أطلق شهقة عالية..

كانت النقوش تصور أناسا يرتدون ملابس حديثة ويتنقلون بواسطة مركبات حديثة وطائرات وسفن فضاء..

ارتد الكابتن «سالم» كالمصعوق وهو يتبادل نظرات مليئة بالذهول مع رفيقيه، ثم عاد يلتفت إلى السكان الذين ما زالوا منهمكين في أعمالهم، بينما عقله يلتهب بعشرات الأسئلة..

ترى أي سر يخفيه مجتمع الأطفال هذا؟!

أي خيال خصب قرر أن يترك الفأس في هذا العالم البدائي، ليسجل تأملاته على هذه الصخور؟!

أي إحساس مرهف وبصيرة نافذة صوَّرا هذه المشاهد الرائعة البعيدة كل البعد عن واقع الحياة الشاقة التي يعيشونها؟!

* * *

كان منزل زعيمهم كبقية منازل القرية، كان مصنوعا بطريقة بدائية وإن أحيط من أربع جهات بشجيرات صغيرة ونخلة سامقة عند المدخل..

طرق الطفل – الذي يقودهم – الباب طرقة خفيفة، حتى سمع صوتا يأتي من الداخل يدعوه للدخول؛ فدفع الباب بكفه ودلف إلى المنزل والرواد خلفه في انفعال..

كان كل شيء داخل المنزل ينم عن البساطة والبدائية.. الأثاث والمحتويات كلها مصممة لتأدية وظائفها الأولية فقط.

وكان المنزل من الداخل واسعا رحبا، وهناك في نهاية الدهليز وعلى حصيرة بسيطة، كان يجلس طفل آخر موليا ظهره لهم، وقد انهمك في شيء ما، لم يتبينوا ماهيته.

وما إن دخلوا حتى قال دون أن يلتفت:

– مرحبا بك يا عزيزي «زات».. وبضيوفك.. الكابتن «سالم» ورفيقيه

«صلاح» و«أمجد»!

هتف «صلاح» في ذهول:

– كيف عرفت أسماءنا؟ بل كيف علمت بقدومنا من الأساس؟

أجاب الزعيم في هدوء:

– هذا لا شيء.. لقد أصبح كوكبكم كالنهر الراكد، لا جديد فيه.. بعد أن أعمتكم التكنولوجيا عن استكشاف خبايا نفوسكم، ومن ثمَّ فقدتم القدرة على التواصل فيما بينكم وحلت الفردية مكان الجماعة.

صاح الكابتن «سالم» في حنق:

– مهلا يا هذا.. كيف تتحدث لغتنا وتتكلم بهذه السهولة عن كوكبنا الذي يبعد عنكم بمليون سنة ضوئية على الأقل، على الرغم من أنكم...؟

قاطعه الزعيم:

– عالم بدائي! إن المعرفة يا عزيزي لا تتطلب علومكم وآلياتكم التي تتشدقون بها طوال الوقت.. لقد عرفنا الحقيقة منذ زمن.. وجدناها بعد أن ضاعت منا لأجيال كثيرة، إيماننا بوجودها جعلنا نضع أيدينا عليها من جديد، واكتشافنا لها زادنا إيمانا بها.. وصدقني.. كم كانت سلسة ورائعة، روعتها تنبع من سلاستها، وسلاستها قائمة على روعتها! ومن ثمّ نقلناها

إلى بعضنا البعض.. ثم إلى كل الكواكب المأهولة.. مثل كوكبكم.

سأله «أمجد» في لهفة غريبة:

– هل تعني أنكم زرتم الأرض من قبل؟!

– مرات كثيرة.. منذ ألوف السنين، لقد حاولنا نقل الحقيقة إلى أجدادكم.. منهم من امتلك البصيرة الكافية ليؤمن بها، ومنهم من تعالى عليها وتشدق بموروثات سخيفة بالية!

قال الكابتن «سالم» في سخرية:

– وكيف زرتم كوكبنا إذًا؟! هل جئتم إليه بعربة تجرها الثيران؟!

– إن الحقيقة تمنحك البصيرة، والبصيرة تجعلك قادرا على النفاذ إلى أي مكان وإلى أي زمان وإلى أي شخص لمجرد أنك تريد ذلك.

– إذًا هل تستطيع ببصيرتك هذه أن تصلح الأعطاب التي حاقت بسفينتنا؟!

– لقد أصلحتها لكم بالفعل.

– وكيف حدث هذا؟ بل كيف أمكنك هذا؟ أنت تتحدث معنا طوال الوقت، و...

– وماذا في هذا؟ أنا أحاوركم وفي الوقت نفسه أقوم بالإصلاحات في

سفينتكم، يبدو أن تفكيركم المادي ما زال يسيطر على عقولكم.. إن الإيمان بالحقيقة يمنحكم شفافية من نوع خاص، قادرة على تخطي حدود عالمكم الفيزيائي الضيق..

وفجأة، اختفى من أمامهم، فتلفتوا حولهم في ذهول بينما صوته يدوي في آذانهم:

- إنها الحقيقة..

عاد يظهر أمامهم ثانية في بطء.. كأنما انبثق جسده من العدم، بينما أمارات السكينة تعلو ملامحه:

- كما قلت لكم.. سلسة ورائعة!

نقل الكابتن بصره إليه، ثم رفع جهاز الاتصال وقال عبره في انفعال:

- «عامر».. ما الأخبار عندك؟

جاءه رد هذا الأخير في دهشة:

- أنا مذهول، إن الأعطاب كلها قد تم إصلاحها من تلقاء نفسها!

سقط جهاز الاتصال من يده، وهو يلتفت إلى الزعيم ثانية:

- أنتم.. مجموعة من السحرة والشياطين!

وأشار إلى رفيقيه، وتراجع إلى الباب ومنه إلى الخارج، في حين قال

الزعيم دون أسف حقيقي:

- للأسف.. هم غير مؤهلين بعدُ!

تسمَّر «أمجد» مكانه لحظة، وشيَّع رفيقيه ببصره حتى غادرا المنـزل بالفعل، ثم خفض رأسه نحوه:

- هل يستطيع أي شخص تعلم الحقيقة؟

- لكي تتعلم الحقيقـة، يجـب أن تملـك البـصيرة الكافيـة للتعـرف إليها!

- وكيف أملك البصيرة؟

- بأن تملك الحقيقة الكاملة.

هبط «أمجد» على ركبتيه أمامـه، وقـال بينمـا العـبرات تـسيل علـى خديه:

- إذًا.. علِّمني الحقيقة..

مد الزعيم الطفل يده يربت على كتفه، ثم رفع عينيه لأعلى مرددا:

- القليل منها.. القليل منها فقط يكفيك!

* * *



الضحية!

كان الظلام قد بدأ ينتشر، واختفت الشمس خلف الأفـق، وتطـاير في السماء رذاذ خفيف، تحوَّل في بطء لقطـرات مطـر صـغيرة، وامتـدت الظـلال الكثيفة لـشواهد القبـور الكـثيرة المنتـشرة في المكـان لعـدة أمتـار أمـام عـيني «أشرف صدقي»، الذي وقف في ثبات أمام إحدى تلك المقابر، وقد حنى رأسـه في تبجيل وعقد كفيه أمام بطنه وأخذ يتمتم ببعض الكلمات في خفوت شديد.

استمر على هذا الوضع لدقيقة أخرى، ثم فتح عينيـه في بـطء، وألقـى نظرة أخيرة على شاهد القبر:

– وداعا يا أبي ويا أمي.

قالها وقفل عائدا بخطوات جنائزيـة بطيئـة، وأمـارات حـزن عميـق ترتسم على وجهه، في حين بدأت حدة الأمطار تتزايد في سرعة.

غـادر منطقـة المقـابر إلى الطريـق الرئيـسي، ووقـف علـى الطريـق الأسفلتي، وأشار بيده لسيارة مسرعة تعبر أمامه، لكن الظلام والأمطار الـتي أصبحت غزيرة حالت دون أن يراه سائق السيارة.

وطفق «أشرف» في مكانه لمدة نصف ساعة، وبـدأ الـسأم يزحـف علـى ملامحه، وكاد يسيطر عليه كليةً لولا أن التقطـت أذنـاه بغتـة صـوت سـيارة

قادمة من بعيد؛ فوقف على جانب الطريق وهو يشير لها بيده، لكنه انتبه فجأة على صرير حاد من عجلات السيارة، ثم ارتطام شيء ما بمقدمتها وارتداده عنها، ليسقط أرضا في عنف، في حين واصلت السيارة طريقها في سرعة رهيبة.

شهق «أشرف» في جزع، والتفت إلى مكان التصادم ودقات قلبه تتعالى في شدة، واقترب من المكان في توتر، وتلفت حوله يمينا ويسارا؛ خوفا من سيارة قادمة، ثم انحنى على الطريق الأسفلتي في حذر، ليرى قطة سوداء صغيرة غارقة في دمائها تعوي في ألم شديد، وبمزيد من التدقيق وجد رقبتها وقد جُزَّت، وأصبحت شبه مفصولة عن الجسد.. أغلق عينيه في ألم ونهض من مكانه.

فجأة، شعر بيد خشنة تستقر على كتفه.. انتفض جسده على أثرها في شدة، والتفت في سرعة إلى صاحبها.. كان رجلا طويل القامة، نحيلا له شعر ناعم طويل ينسدل على كتفيه، ويرتدي معطف مطر أسود طويلا..

قال الرجل بهدوء:

– أهي قطتك؟!

– كلا!

– غريب! غريب!

وقطّب جبينه، مردفا:

- هل ماتت؟!

أومأ برأسه:

- للأسف الشديد، لقد صدمها سائق أرعن، و...

قالها وهو يشير بيده إلى جثة القطة، لكن يده تسمرت مكانها بغتة، وتوقفت الكلمات في حلقه..

فباستثناء الدماء التي تلوث الطريق، لم يكن هناك أدنى أثر لجثة القطة!!

لاحت نظرة شك في عيني الرجل الطويل:

- هل أنت متأكد من موتها؟!

- بالتأكيد.. لقد جُزت رقبتها تماما، و...

- ليس بالضرورة.. أنت تعلم لعبة الظلال تلك، ولو أضفنا إليها الأمطار أ...

مط «أشرف» شفتيه بلا اقتناع:

- ربما.

- لا داعي لهذا الوجوم، لقد أصيبت القطة بجرح سطحي ولاذت

بالفرار..

- معك حق.

عاد الرجل يسأله:

- لكن ما الذي أتى بك إلى هذا المكان الموحش في مثل هذا الوقت؟

أجاب «أشرف»:

- أنا «أشرف صدقي»، وقد جئت لأزور قبر والدي قبل سفري غدا.

وتفرس في ملامحه لحظة، ثم سأله:

- لكن ماذا عنك أنت؟

ضحك «حامد»:

- أنا أسكن هنا.. أنا «حامد»، الحارس الهمام لهذه المقابر..

ومد يده مصافحا.. لم يتمالك «أشرف» نفسه من الابتسام لظرف الرجل، في حين تابع هذا الأخير:

- ما رأيك لو أويت لكوخي المتواضع ريثما تتوقف الأمطار؟

- يبدو أنه لا مفر من ذلك.

وتبع الرجل إلى منطقة المقابر مرة أخرى، ولم يدر لماذا انتابته ارتجافة خفيفة هذه المرة، وهو يمر بجوار الشواهد المنتشرة في المكان..

دفن عينيه على موضع قدميه، والرجل يقوده في هدوء لفرجة صغيرة بين الأشجار، وخلفها وجد نفسه أمام الكوخ..

دفع «حامد» باب الكوخ بيديه، ودلف إلى الداخل، وهو يقول:

– تفضل.

ثم لم يلبث أن توقف، وانحنى على الأرض، وسمعه «أشرف» يغمغم في حيرة:

– ما هذا؟!

ودلف خلفه، وسأله بقلق:

– ماذا هناك؟!

أشار «حامد» بيده لقطرات دماء منتشرة على أرض الكوخ دون أن يجيب.. تتبع «أشرف» آثار الدماء بعينيه، وهتف:

– انظر.

كانت هناك آثار أقدام انطبعت بالدماء على أرض الكوخ الخشبية، صاعدة إلى أعلى حيث الطابق الثاني.. أقدام قطة صغيرة!

– أيمكن؟!

ورفع رأسه لأعلى..

ضحك «حامد» بارتباك:

- يبدو أن ضحيتنا قد وجدت في كوخي المتواضع ملاذها الأخير!

وصعد الدرج لأعلى، وتبعه «أشرف» في حذر.. كان المكان خاليا!!

أشار له «حامد» بالجلوس، وجلس هو على مقعد قديم متهالك:

- هل لك في قدح من الشاي؟

وبدأ بالفعل في إعداد الشاي دون أن ينتظر منه الإجابة..

- يبدو أنك إنسان حساس بالفعل لكي يؤثر فيك مصرع قطة بهذا الشكل.

- إنها كائن حي على كل حال.

- لكن - برأيك - هل ترى جدوى لوجودها في عالم الأحياء؟

نظر له «أشرف» بعدم فهم، ثم قال في بطء:

- بالتأكيد إنها حيوان أليف نأنس به، ويخلصنا كذلك من الفئران.

- إذًا أنت تعتبر الفئران كائنات ضارة لا جدوى أساسا من وجودها.. جدواها الوحيدة هي توفير غذاء مناسب للقطط.

- ليس بالضرورة.

همهم «حامد» ببضع كلمات، ثم تابع:

– لكن كيف تعتقد رد فعل الفئران إزاء هذه الحقيقة؟ هل ستشعر بالسخط والتذمر؟ هل تتألم من الظلم الساقط على كواهلها؟

– أنا لا أفهم قصدك، فكل كائن على وجه الأرض خُلقَ لهدف محدد في الحياة.. الحمار مثلا لن يشعر بالغضب لأنه يعمل طوال النهار بينما بقية الحيوانات ينعمون بدفء الشمس.

– جميل.. جميل.. إذًا فليس على الفأر أن يتذمر لكونه قد خُلق لهدف واحد محدد كغذاء للقطط.

همَّ «أشرف» بالتعقيب، لكنه أردف:

– وهذا ما يجب علينا كلنا استيعابه.. إن وضع الأمور في نصابها الصحيح يحقق المعادلة الصعبة في أغلب الأحيان.

وناوله قدح الشاي الساخن مردفا:

– ألست معي في هذا؟!

– بلى، لكن...

وتوقف عن الاستطراد ليرشف رشفة صغيرة من قدحه.. كان المذاق لذيذا يبعث الدفء في أوصاله.

فحثه «حامد» على المواصلة:

– لكن ماذا؟

– لكن هذه القاعدة لا تنطبق علينا نحن البشر.. لقد كرَّمنا الله بالعقل الذي يجعلنا نطوع الظروف من حولنا لمواكبة ما يمر بنا من أحداث.. إن كل ما حولنا قد خُلق لهدف محدد: خدمتنا.

وتناول رشفة أخرى وانتشر الخدر اللذيذ في أطرافه:

– وهذا ما جعلنا نستعمل الحيوانات منذ فجر التاريخ لتقوم بالأعمال الشاقة عنا، كالحمل والجر والحرث، ثم – وبمرور الوقت – اخترعنا السيارات والطائرات والسفن، واستطعنا أن نجوب العالم، ونستغل قوى الطبيعة لخدمتنا.. ألا ترى أن هذا قد وسَّع من محدودية الهدف من وجودنا؟!

ضحك «حامد»:

– هذا كله جميل.. بضعة آلاف من السنين، هي عمر الإنسان على الأرض، تمخضت عن هذه الأشياء – أم أقول الإنجازات – التي جعلت الإنسان هو سيد الأرض وطفلها المدلل.. فما بالك بملايين السنين، وبالكيانات القديمة التي تحدثت عنها المخطوطات الأثرية، التي عمرت الأرض قبل الإنسان بملايين السنين.. كائنات لا نعلم عنها شيئا حتى الآن سوى أنها قد وُجدت ذات يوم، وقد كانت كذلك تملك العقل الذي نتباهى

بامتلاكنا إياه؟ ترى ماذا سيكون رد فعلنا إزاء هذه الكيانات إذا ظهرت في عصرنا الحالي؟! بالطبع لن تستوعب عقولنا المجردة وجود مثل هذه الكائنات، لكن من يدري؟ ربما ينتشرون حولنا.. في الطرقات.. في ذرات الرمال.. في الحيوانات.. في الهواء!! وماذا سيكون رد فعلها هي تجاهنا بوصفنا كائنات أدنى مرتبة؟! فهل نتذمر؟! نغضب؟! نثور؟! أم...

همَّ «أشرف» بالتعقيب على حديثه، لكن دوارا مخيفا اكتنف رأسه، فتهاوى على المقعد في عنف..

كان يجاهد لإبقاء عينيه مفتوحتين، وبذل جهدا مضاعفا لتحريك لسانه:

– مـ... ماذا فعلت بي؟

مال «حامد» بوجهه نحوه، وتابع بصوت خافت دون أن يلتفت لعبارته:

– أم نتقبل الحقيقة المجردة، ونسلم صدورنا للنور الأبدي؟!

وتراجع للخلف في بطء، وشعر «أشرف» بشيء ما يتسلق جسده، ويسير في تؤدة على بطنه وصدره.. تلاحقت أنفاسه في سرعة، وفتح عينيه عن آخرهما.. ولرعبه الشديد، رأى القطة.. نفس القطة التي صدمتها السيارة من قبل.. رآها وهي تتسلق جسده، وتقترب من وجهه في بطء، والدماء

الغزيرة تندفع كالنافورة من رقبتها نصف المبتورة!!

وفي عينيها البراقتين، لمح «أشرف» انعكاس وجهه الشاحب المذعور، ولاحظ النظرة الغريبة على وجه القطة.. وجه أرهقته السنون!!

وتقدمت للأمام على صدره خطوة أخرى..

واقترب «حامد» منه في بطء، وانحنى على أذنه هامسا في خفوت شديد:

- تذكر.. ليس عليك أن تتذمر من المصير الذي ينتظرك.. هي مجرد خطوات قد حُددت سلفا.. بضع خطوات قليلة، في طريق طويل، عمره ملايين السنين!

- أغلق «أشرف» عينيه في هدوء، وابتسم...

رجل عرف المصير الذي ينتظره، والدور الذي يجب عليه أن يؤديه في تلك المسرحية الرهيبة.. مسرحية تُحاك خيوطها في الكواليس منذ ألوف السنين!

ارتفع مواء القطة، وفمها يستطيل بسرعة رهيبة كاشفا عن صفين من الأسنان الحادة اللامعة، و...

مرحبا بالنور الأبدي!

* * *

اللقاء

قالت المذيعة:

– أعزائي المشاهدين.. نتشرف اليوم باستضافة «د. علي ثابت» – أشهر علماء الفيزياء الفلكية في عصرنا الحالي – مرحبا بك يا «د. علي».

قال هذا الأخير في هدوء:

– مرحبا بك يا «سارة».. وأشكرك كثيرا على هذه المقدمة الخلابة.

وأضاف بابتسامة واسعة:

– بالمناسبة.. تصفيفة شعرك اليوم رائعة.

قالت في سعادة:

– حقًا؟ إنه مصفف الشعر الإلكتروني، لقد ابتعته خصيصا وأنا أجهز لهذه الحلقة!

رد ضاحكا وهو يشعل غليونه:

– لا أعتقد أنه بمثل هذه البراعة ليصنع تحفة كهذه.

ابتسمت في جذل، في حين عقد المخرج حاجبيه خلف جهاز البث الهولوجرافي، ومال نحو مساعده:

- هل يغازلها على الهواء؟!

هز المساعد كتفيه:

- أعتقد هذا.

- الوغد!

وفي اللحظة نفسها كان «د. علي» يقول بلهجة عابثة:

- ما رأيك يا عزيزتي أن نرفع الكلفة بيننا ونتحدث بلا ألقاب: «علي» و«سارة»؟!

وضحك:

- إن المشاهد المسكين ليس بحاجة لكل هذه التعقيدات.. ألا توافقينني في هذا؟!

ضحكت بدورها في سعادة:

- بلى! بكل تأكيد.

ثم اعتدلت في مقعدها، مردفة:

- «علي»!

وضحكت ثانية، وتوقفت عن الاستطراد.

- لا عليكِ.. هي مسألة تعود لا غير.. هيا رددي ورائي: «علي».. «علي».

رفعت عينيها إليه في إعجاب قبل أن ترسم الجدية على ملامحها:

- إحم.. لا بأس.. «علي».. أرجو أن تحدثنا اليوم عن الحدث الأكثر أهمية خلال عمر التاريخ البشري بأكمله، ألا وهو هبوط سفينة فضائية غريبة تقودها مخلوقات عاقلة على الأرض!

- الحق أقول: إننا كنا نترقب هذا اللقاء منذ زمن بعيد.. ضخامة الكون من حولنا خير دليل على أن هناك كائنات أخرى تشاركنا الحياة.. وعلى هذا الأساس قمنا برحلاتنا الفضائية إلى تخوم الكون، وأطلقنا مجساتنا الآلية لتستكشف المجهول.

وأطلق دفقة دخان من غليونه، متابعا:

- وقدوم تلك السفينة الغريبة وهبوطها في صحراء مصر الغربية منذ ثلاثة أيام، كان تحصيل حاصل، على الرغم من أنها منذ هبوطها لم يصدر عنها أي إشارة أو دليل على أن لها روادا يوجهونها.

- أتعني أنك لم تندهش لمجيئهم إلينا؟!

- لا مجال للدهشة في العلم.. هناك فقط الاستنتاجات المبنية على ركائز ثابتة من المعطيات المتاحة.. وكما قلت لك: إننا كنا نترقب لقاءهم في شغف، أما الحدث الأكثر أهمية في رأيي فهو أنهم قد جاءوا إلينا أولا قبل أن نذهب نحن إليهم!

– ألا يعني هذا أنهم متفوقون علميا علينا؟!

– لا أعتقد!

نظرت إليه بتساؤل، فتابع:

– مجيئهم إلينا أولا لا يعني أبدا أنهم متفوقون علينا.. فربما كانوا متقدمين في فرع مهم من فروع العلم، ألا وهو الفلك، وهذا لا يعني بالضرورة تقدمهم في باقي فروع المعرفة.

– إن تجهيز الرحلات الفضائية الطويلة يتطلب أكثر من تخصص علمي.. هناك على سبيل المثال: الفلك، الفيزياء، الكيمياء، جيولوجيا الفضاء... إلخ!

أطلق «د. علي» صفيرا خافتا بشفتيه:

– رررررائع! أنت متابعة جيدة للأحداث يا عزيزتي.

ابتسمت في خجل، في حين تابع هو:

– أنا معك في هذا.. ما كنت أقصده هو بحث شديد الأهمية نعمل عليه الآن في معاملنا، نطلق عليه «العلم البديل»!

ومال نحوها:

– وما زال قيد الكتمان.

وتراجع ثانية:

– لكنني سوف أخبرك فقط بالنقاط الرئيسية.

واعتدل:

– إن الفراعنة – على سبيل المثال – قد بنوا أهراماتهم اعتمادا على علم هندسة معماري غريب علينا، بدليل أننا – وعلى الرغم من تقدمنا الآن – لم نستطع إقامة صرح رائع مثلها.

وأضاف بلهجة ذات مغزى:

– لكنهم لم يستطيعوا الصعود إلى القمر!

وهو ما أطلقنا عليه اسم «العلم البديل».. فربما كانت لهم تكنولوجيا مختلفة عنا أحادية الاتجاه.

– على أي أساس إذًا نقيم مدى تقدم تلك الحضارات الوافدة؟

أجاب في هدوء:

– أعتقد أن مقياس تقدم تلك الكائنات الوافدة سوف يعتمد بشكل كبير على.. عدد أصابعهم!

رددت بدهشة:

– ماذا؟! قلت عدد أصابعهم؟!

ابتسم، وقال في حكمة كأنما يؤدب طفلا شقيا:

- بالتأكيد.

وتابع في استمتاع:

- قديما قال أحد العلماء: إن الأرقام الثنائية هي وسيلة العد لمن لا يملكون سوى إصبعين في كفهم، وبتلك الشفرة الثنائية المكونة من الصفر والواحد يستطيع الكمبيوتر القيام بملايين العمليات الحسابية المعقدة في دقائق قليلة..

وطوال قرون كثيرة، عرف الإنسان الأعداد وعرف كيف يعد على أصابعه، وكانت مشكلة هذه الطريقة هي أنها قاصرة بشدة مع الأعداد الكبيرة - من وجهة نظرهم وقتها - المائة والألف على سبيل المثال.

ومنذ حوالي ألفي عام، اخترع الإنسان «الأُس»، وتعلم كيف يتعامل مع الأرقام الضخمة ببساطة شديدة؛ فالمليون يصير عشرة أُس ستة، والرقم ستة يشير إلى عدد الأصفار التي تنبغي كتابتها على يمين الواحد..

لماذا الرقم عشرة؟! لماذا نحول الرقم الضخم إلى عشرة أس كذا؟!

هذا لأننا، منذ عرفنا الأعداد، بدأنا بالعد على الأصابع العشر الموجودة بأيدينا، وهكذا كان الرقم عشرة هو القاعدة التي نبني عليها عمارة الأرقام، وانعكس هذا بدوره على مفهومنا عن الـ«ما لا نهاية».

والتقط أنفاسه:

- تعالي معي نتخيل وجود مخلوقات عاقلة في مكان ما من الكون، لكنها تمتلك إصبعين فقط. سيكون هذا الرقم «2» هو قاعدتهم الأولية في تعاملاتهم مع الأرقام، وبالتالي بعد فترة بسيطة سوف تعجز عقولهم عن استيعاب أرقام أكثر ضخامة.. عدد النجوم - مثلا - في سماء صافية، سيكون هذا في نظرهم المفهوم الأوحد عن الـ«ما لا نهاية».. أما نحن فنستطيع وضع رقم محدد لعددها..

وعلى نفس النهج لو تخيلنا وجود مخلوقات عاقلة أخرى تمتلك أكثر من عشر أصابع، فسوف يوسع هذا من مفهوم الـ«ما لا نهاية» عندهم..

الأرقام الضخمة، التي لا نجرؤ حتى على تخيلها، ستصبح طرفا أساسيا في تعاملاتهم الرياضية، وهذا - بالتالي - سيجعل إلمامهم بضخامة الكون من حولهم أكثر إمكانا في ظل تقديراتهم الاستقرائية المتاحة للأرقام.. باختصار سيكون تقدمهم العلمي رهيبا إلى الدرجة التي نصبح بجوارهم مجموعة من البدائيين.

انتهى من شرحه، فتطلعت «سارة» إليه لحظة في انبهار، قبل أن تهتف:

- رائع.

هز رأسه:

- أشكرك.

هزت رأسها في قوة؛ لتنفض عنها ما علق بها من انفعالات، قبل أن تواجه الكاميرا:

- أعزائي المشاهدين.. في نهاية حديثنا الشائق مع «علي».. أ... أقصد «د. علي»، سوف نعرض عليكم الآن صورة من قلب الحدث.. من موقع هبوط السفينة الفضائية الغريبة، مع مراسلنا هناك «كريم».

غمز «د. علي» بعينه:

- لقد كنت رائعة.

- أشكرك.

وأردفت في ارتباك:

- «كريم».. هل تستطيع رسم صورة واضحة لما يحدث عندك الآن؟

اقتربت الكاميرا من مكان سفينة الفضاء، وقد التف حولها عدد من العلماء والعسكريين.

- شكرا «سارة».. إنني أرى الآن كوكبة من العلماء من مختلف الجنسيات وهم يقتربون في حذر من السفينة الفضائية، بعد أن ظلت على صمتها المثير هذا لأكثر من اثنتين وسبعين ساعة، وأنا أقترب الآن خلفهم

لأتابع الـ...

وتوقف بغتة عن الاستطراد، ثم صاح في انفعال:

- مذهل! إن باب السفينة ينفتح في بطء، وهناك سيلويت شبه بشري لشيء ما يتحرك في الداخل!

اتسعت عينا «سارة» في انفعال، في حين اعتدل «د. علي» في مقعده بحركة حادة..

والمراسل يواصل في انفعال:

- يبدو أن ذلك الشيء أو ذلك المخلوق يستعد للخروج من السفينة الآن..

احتبست أنفاس الجميع، والكاميرا تقترب في سرعة من باب السفينة، بينما ذلك المخلوق يخرج في بطء..

كان مخلوقا غريبا يشبه البشر إلى حد ما..

يمتلك عشر أيادٍ تتحرك هنا وهناك..

وكل يد تنتهي بعشرين إصبعا!!

- يا إلهي!!

* * *



الباب المفضي إلى.. المجهول

تراجع رقم «1» في مقعده قائلا:

- شكرا.

وأشار بيده إلى الخادم الآلي إشارة خفية؛ انصرف على أثرها على الفور، وطفق يتطلع بعينين لا ترايان إلا الأبخرة المتصاعدة من فنجان القهوة.

كان طول فترة عمله مديرا للأكاديمية العلمية قد أسبغ على ملامحه غمامة ما جعلت من العسير استشفاف ما يدور في أعماقه من ملامحه ذاتها!

لم يكن رقم «1» عالما في أي فرع من علوم الحياة طوال فترة حياته، بل كان يقول عن نفسه دائما: «أنا خبير علمي، أي أنني أعرف شيئا عن كل شيء في العالم».

فمنصبه لم يكن يحتاج بالضرورة إلى عالم، بل إلى إداري من الدرجة الأولى، وهو كان ولا يزال خير من يتعامل مع الأرقام ومتطلبات البشر.

كان القناع المهني الذي ظل حكرا على وجهه عشرات الأعوام يخفي ما يعتمل داخل أعماقه من توتر وقلق شديدين؛ ما جعل مساعده الأول رقم «10» يفشل في استشفاف طرف خيط يبدأ به من وسط ملامحه الصلدة، على الرغم من احتكاكه الطويل به!

- وجهك يشي بكارثة أي رقم «10»؟

تنحنح هذا الأخير لحظة في توتر، ونقل بصره بين وجوه مجموعة العلماء المستقرين حول مائدة الاجتماعات، ثم نهض من مقعده واتجه صوب جهاز البث الهولوجرافي، قائلا:

- ما سترونه الآن أيها السادة هو عدة حوادث متفرقة وقعت على مدى الشهرين السابقين لمجموعة من أشهر علماء هذا العصر في مواقع مختلفة من العالم.

وفرقع بسبابته وإبهامه، فتكونت صورة هولوجرافية مجسمة في جانب الحجرة لمعمل صغير يقف في منتصفه عالم عجوز منهمك في شيء ما.

- هذا هو «د. هاشم علوي» - أشهر عالم طاقة في عصرنا - الذي استطاع منذ عدة سنوات اقتناص البروتون السالب وترويضه في مصانعنا العملاقة، والآن.. انظروا ماذا يفعل...

كان «د. هاشم» يمسك بقطعة من الورق ويقلبها في يده بحذر شديد، ثم ضبط ساعة التوقيت، وتأكد من عمل الكاميرا التي تقيس جزءا من مليون جزء من الثانية، وهمس:

- الآن سوف أكشف اللثام عن المعضلة التي أقضت مضجعي على مدى الأيام الفائتة.. سأضع الورقة فوق اللهب وأنتظر النتيجة.. إن معادلاتي

عجزت طوال الفترة السابقة عن توقع النتيجة، إن الورق شيء صلب، أما النار فهي ليست بشيء صلب أو سائل أو غازي.. إنها حالة فريدة من نوعها.

ترى كيف سيكون ناتج الالتقاء؟!

وقرَّب الورقة من اللهب في بطء؛ فاشتعلت بوهج عالٍ ولسعته، فألقاها أرضا وقد تحولت إلى قطعة فحم..

وقفز من مكانه، صارخا:

– مستحيل! النتيجة جاءت مذهلة! لقد احترقت الورقة، تبا! إنها لم تعد كذلك؛ لقد تحولت إلى شيء آخر.. يا له من إنجاز علمي ساحق!

* * *

قال «د. عادل حجازي»:

– قديما تحدث «داروين» عن التطور، وعن تحدرنا من وحيدات الخلايا إلى الإنسان الكامل، مرورا بالأسماك والبرمائيات والزواحف العملاقة، ولو كان لنا أن نتوقع في كل مرة أن تنقسم الأميبا لتنتج كائنين جديدين من نفس النوع، فأين نحن إذًا من هذه الدائرة الأبدية؟

ورفع يده بمسدس عتيق من النوع ذي الساقية الدوارة، مردفا:

– هذا مسدس قديم، لطالما استُخدم قديما في الحروب والاغتيالات.. إنه آلة للقتل كما ترون.

وبدأ يحشوه بالطلقات:

– يتم وضع الطلقات هنا، ثم التصويب على الهدف، والضغط على الزناد.. لتنطلق الرصاصة بعدها في سرعة رهيبة كافية لتخترق جسد الضحية وتصرعه على الفور.. إما بإصابة مركز وإما عضو حيوي وإما بالنزيف الشديد وإما بالصدمة العصبية.

وتنهد:

– هذا ما قيل في كتب التاريخ عن المسدس.. لكن أنَّى لنا الآن بالحقيقة المقدسة؟ إن تجارب القدماء تثبت أن طلقة المسدس قد تقتل، وهذا القول قد يرجح لكنه لا يؤكد كذلك..

ورفع طلقة صغيرة أمام عينيه:

– الحقيقة هي أن منظومة الصرح البشري ليست بالضعف الذي تسلبه قطعة المعدن هذه حيويته.

والآن سوف أثبت وجهة نظري بالدليل العملي.

ورفع المسدس إلى رأسه، وتردد لحظة قبل أن يعدل رأيه ويصوبه إلى قلبه:

– المبدأ العلمي لن يتزحزح، ولئن كنت واثقا من وجهة نظري – وأنا واثق – فلأصوب إلى قلبي لأمنح نفسي فرصة للاستطراد..

وضغط الزناد بلا تردد..

اتسعت عيناه في شدة، وحدق في الدماء الغزيرة التي تندفع كالنافورة من صدره، ثم شهق مردفا:

– يبدو أن القدماء كانوا على حق، لكن هذا أيضا لا يثبت شيئا!

* * *

انتهى العرض، فتنهد رقم «**2**»، وقال:

– أرى أنك – أي رقم «**10**» – لم تقدم لنا سوى ملخص سريع لحادثتين نادرتين.

– إنها ليست نادرة؛ فمعي الآن تقارير لألف حالة مشابهة، لعلماء بارزين وموظفين وعامة بنسب متفاوتة: **15**٪ – **19**٪ – **66**٪ على الترتيب!

هتف رقم «7»:

– ولو! في رأيي أن الأمر لا يتعدى كونه حالة إرهاق عامة، بعد المجهود الذهني والعضلي الذي أصابنا جميعا أثناء تنفيذنا لمشروع «ديسون» حول الشمس، منذ عدة أشهر!

وانبرى رقم «**5**» قائلا:

– لقد تحكمنا في الجينات منذ عقود طويلة، ومنعنا الأمراض قبل

حدوثها، لولا هذا لاعتقدت أنها حالة جنون.

قال رقم «9»:

– هذا صحيح.. لقد تحول الطب إلى مجرد هواية، بعد أن سيطرنا على جميع الأمراض وروضنا الأوبئة المسببة لها وعدلنا جينات المرض والجنون!

وأردف رقم «6»:

– في اعتقادي الشخصي، فإن الأسلوب الأمثل لمعرفة الحقيقة هو بعثرة هذه الحالات ومعاملة كل منها على حدة ومحاولة الوصول إلى سبب منفصل لكل حالة، أما عن كونها قد تراكمت كلها في ظروف مشابهة، فالأمر لا يعدو كونه مجرد مصادفة!

صاح رقم «3»:

– أأنت تقول مصادفة أي رقم «6»؟! المصادفات هي سراج الجاهل في ظلمات تخلفه! أما نحن.. نحن علماء، لا نؤمن سوى بالحقائق والمعطيات.. بالعلة والمعلول.. فالقرد الذي ظل يعبث بالآلة الكاتبة ملايين المرات ليخرج بعدها قصيدة للمتنبي لم يفعلها من قبيل المصادفة، بل بالتجريب والمواصلة والمباشرة المستمرة! هو قرد في مظهره لكنه طوّر من قدراته تبعا لما يريده!

– «لحظة كفاف!».

التفتوا إلى مصدر الصوت بتساؤل؛ ليطالعهم وجه رقم «10» وهو يقلب كتابا صغيرا بين يديه، متابعا:

– هذا الكتاب عمره قرن كامل من الزمان من تأليف «د. حسين شوقي» – العالم النفسي الشهير، الذي أدين وأعدم بتهمة الهرطقة الفكرية، ومُنع كتابه هذا من النشر!

ورفع الكتاب:

– الكتاب بعنوان «هبوط الإنسان»، ويشرح بالتفصيل الحالة التي نحن عليها الآن.. في مقدمة الكتاب يتساءل المؤلف عن حركة التاريخ ومسيرة الإنسان، هل يصعد.. يتطور.. أم ينحدر؟!

وبعد دراسة مطولة مرهقة، توصل إلى أنه في فترة ما من المستقبل، حددها بمائة سنة على الأكثر، سوف يركن بنو الإنسان إلى حالة من البلادة، أطلق عليها «لحظة الكفاف» نتيجة لتطورهم السريع وامتلاكهم لعلم ناقص يضعهم في حالة اكتفاء ذاتي بما توصلوا إليه.

هتف رقم «9» محنقا:

– علم ناقص؟! هل تعتقد أن كل ما توصلنا إليه مجرد علم ناقص؟ لقد جابت سفننا الفضائية أرجاء الكون، واكتشفنا أعماق البحار والأرض.. سيطرنا على الأمراض، نجحنا في تجميد البشر لفترات طويلة ثم بعثهم من

جديد.. اقتنصنا البروتون السالب وروضناه داخل معاملنا، و.. و... لو كنا قد وصلنا إلى لحظة كفاف كما تقول، فالسبب هو أنه لم يعد هناك شيء يُكتشف أو يُخترع أو يُصنع.. لقد حققنا حلم الفلاسفة والعلماء منذ ملايين السنين، وتوصلنا إلى النظرية الموحدة التي تحكم عالم العلم.

هز رقم «1» يده:

– دعكما من هذا الجدل الطويل حول مدى العلم الذي توصلنا إليه.. رقم «10»، أطروحتك – أم أقول نظرية – تقول إن حالات الانتحار هذه جرت كلها عن عمد بسبب لحظة الكفاف التي تكلمت عنها، والسبب هو أن هؤلاء العلماء بكل علمهم وعبقريتهم قد عجزوا عن التواصل.. تيقنوا من أنهم قد توصلوا إلى حافة العلم.. لم يعد هناك مجهول.. غموض!

أومأ رقم «10» برأسه بعلامة الإيجاب، فأكمل رقم «1»:

– لكن تقاريرك تشير إلى حالات انتحار مماثلة بين العامة، فما السبب في رأيك؟

– هذا بدوره ناتج عن الافتقار إلى المجهول.. رجل الشارع العادي يستيقظ من نومه ليطالع أحلامه بالصوت والصورة على شاشة جهاز الأحلام الموجود في كل منزل.. يستقل أحد الأنفاق الدودية – أو التحت أرضية – ليصل إلى الجانب الآخر من الكرة الأرضية في أقل من ثانيتين.. لم يعد يقلق

نفسه بالمشاكل الاقتصادية؛ فكل شيء أصبح متاحا.. حتى الألغاز البوليسية وأفلام التشويق لم تعد تؤتي ثمارها، بعد أن سيطرنا على الخريطة الجينية ورفعنا درجة الذكاء عند البشر إلى أقصاها.. لم يعد هناك واحد أذكى من الآخر.. كل البشر عباقرة!

العقل البشري فقد القوة الدافعة التي كانت تدفعه دوما إلى الأمام.

غمغم رقم «3»:

– هذا كلام رجعي يجعل من العلم نقمة كبرى في تاريخ الجنس البشري.. وهذا شيء أرفضه بشدة.

وأردف ضاحكا:

– أم عساك تفترض أن رجل الكهف القديم بمئزره الجلدي وهو يجر امرأته من شعرها أفضل منا؟!

أجاب رقم «10»:

– هذا صحيح..

ارتفعت صيحات الاستنكار، فأردف:

– أجل.. إنه أفضل منا جميعا بنعمة المجهول.. أي سعادة توصف وهو يقرب – لأول مرة – حجرين من بعضهما في قوة لينتج عنهما شرارة

اللهب المقدسة.. أجل أيها السادة.. نحن في أمسّ الحاجة إلى مجهول.

سأله رقم «1» في قلق:

– وما الحل في رأيك؟ التقارير هنا بين يدي تشير إلى أكثر من مليون حالة انتحار في أقل من ثلاث ساعات فقط.. لو لم نجد الحل خلال ست ساعات من الآن، فسوف تتحول الأرض إلى كوكب أشباح.

عاد يرفع الكتاب بين يديه:

– لقد فكر «د. حسين» في إجابة هذا السؤال، فبدأ تجربة من نوع خاص، واستقطب مجموعة من المواليد حديثا دون أن يتم التلاعب بجيناتهم، ووضعهم في بيئات شبه بدائية تشبه كوكب الأرض في شبابه وفتوته.. وطفق يراقب على مدار عقدين كاملين من الزمان.. فماذا كانت النتيجة؟

نشأ هؤلاء الأطفال وبدأوا يكوِّنون مجتمعهم في سرعة.. نشأ الحب بينهم، وتكاثروا.. ولأول مرة منذ آلاف السنين أتت إلى البسيطة ذرية جديدة بعيدا عن معامل الاختبار، وبالمصادفة البحتة توصل أحدهم إلى اختراع الهاتف، وصنع آخر آلة احتراق داخلي.. باختصار عاشوا حياة عادية خالية من المشاكل، باستثناء المشكلات التي تفرضها عليهم متطلبات البيئة بالطبع..

وعندما حاول «د. حسين» إطلاقهم إلى العالم الخارجي، حدثت

الصدمة الكبرى! لقد انتابتهم حالة مخيفة من التقلص والإحباط.. تلك الهواتف الحديثة.. وسائل المواصلات الآنية.. ذلك التقدم المخيف!

وحدثت الصدمة التي تنبأ بها عالم النفس القديم «يونج» منذ ألوف السنين: كل ما أجهدوا أنفسهم باختراعه واكتشافه وقناعتهم شبه الكاملة ورضاهم عما أنجزوه اصطدم بالتكنولوجيا الرهيبة في الخارج؛ فشعروا بإحباط مرير وانتحر بعضهم في حين سقط البعض الآخر في غيبوبة عميقة مجهولة.

اتسعت العيون في شدة وهو يتابع:

– وهذا ما حدث مع بعض علمائنا لكن على نحو معكوس.. هناك العالم الذي أجهد نفسه لمعرفة معلومة بديهية هي تأثير النار على الورق.. لقد فقد عقله القدرة على اكتشاف المجهول لأنه وبكل بساطة رأى أنه لم يعد هنالك مجهول يسعى إليه؛ فاتخذ عقله الباطن رد فعل قويا حتى لا يصاب الرجل بالجنون.. حالة فقدان ذاكرة هيستيري.. وضع غمامة هائلة على كل البديهيات من حوله، وبهذا خلق الموازنة المثلى بين عقله الواعي وعقله الباطن.. الأول يحاول جاهدا اختراق الغمامة – المجهول – الذي صنعه الثاني!

أما في حالة «د. عادل» فالأمر يختلف.. لقد وصلت حالة الكفاف إلى

ذروتها في عقل الرجل، فآثر أن ينتحر.. لكن كيف؟! هو لا يقدر على فعلها، ولن يقدر..

لكن ذلك الصراع المخيف داخل جمجمته يكاد يلتهمه حيا.. الحاجة إلى المجهول.. الافتقار إلى المجهول.. وهنا لجأ عقله الباطن إلى حل جذري يقضي على المشكلة بأكملها من الأساس.. الغمامة التي أسبغت على عقل «د. هاشم» من قبل عقله الباطن لإنقاذه، كانت هذه المرة لقتل «د. عادل»!

لقد وضع عقله الباطن غمامة من المجهول على بديهياته؛ فالمسدس المعروف عنه أنه آلة للقتل ليس سوى قطعة خردة غير قادرة على هدم منظومة الصرح البشري، وهنا رفع الرجل المسدس إلى قلبه وضغط الزناد راضيا، محققا بذلك المعادلة الصعبة!

سأل رقم «1» بقلق:

– والحل؟!

– الحل هو أن نتحسس طريقنا ونتخبط في بحثنا المحموم عن جدران المجهول لنأوي تحتها.

– لكن هذا مستحيل في عصرنا الحالي.. لقد توصلنا إلى كل شيء بالفعل.

– هذه هي المعضلة.

قال رقم «2»:

- مهلا.. ألم تقل في بداية حديثك إن كل ما توصلنا إليه الآن ليس سوى علم ناقص غير مكتمل؟! إذًا هناك شيء لم نكتشفه بعد.. شيء يجعلنا نستمر.

- هذا صحيح.. لكن المشكلة ليست في هذا، المشكلة الحقيقية في عقولنا نحن، لقد ترسبت في اللاوعي البشري الكذبة المخيفة التي تقول إننا قد وصلنا إلى كل شيء، ومحاولة إقناع الجموع بالعكس أشبه بمجموعة الباحثين الذين استنتجوا - بعد لأي - أن مؤلف الإلياذة ليس هوميروس، بل شخص آخر له نفس الاسم!

- إذًا فقد سقطنا في حلقة مفرغة.. فالحل هو إقناع البشر بأننا لم نتوصل لكل شيء، وأن هناك شيئا مجهولا لم يُكتشف بعد، وهذا يتطلب بالتبعية وجود ذلك المجهول.. المجهول الذي لا نستطيع إيجاده، أ...

وصمت لحظة:

- مهلا.. ألا يعني بحثنا المحموم هذا عن حل للمشكلة بحثا في جدران المجهول؟ ألا يعد هذا انتصارا مؤقتا للعقل البشري؟!

قال رقم «10»:

- بلى هذا صحيح.. لكنه كما قلت انتصار مؤقت.. ألم تلاحظوا أيها

السادة أننا – على الرغم من كوننا علماء – لم نُصَب بعدُ بوباء الانتحار الجماعي والجنون الشامل هذا؟!

– ....

– لأننا ببساطة مجموعة من العلماء الأكاديميين.. على الرغم من معرفتنا بحجم المشكلة، فإننا لم نستوعب تفاصيلها بعد.. نحن يا سادة أشبه بمجموعة من العميان الذين يتحسسون فيلا.. أحدنا يمسك الذيل ويعتبره منشفة، والآخر القدم ويتصورها عمودا، والثالث الزلومة ويقسم إنها خرطوم! لكن أنّى لنا استيعاب حقيقة الفيل المجردة؟ إننا الآن في مرحلة التخبط ولن يمر وقت طويل حتى نستوعب الأمر، وبعدها...

ارتفع صوت جلبة في الخارج، وانفتح باب القاعة بعنف، ودلف إلى المكان رجل عارٍ، لا يلبس إلا مئزرا جلديا صغيرا يستر عورته، وتطلع إلى الجميع بعينين لا تريان، وجاء السكرتير خلفه محتجا، في حين قال رقم «5» في ذهول:

– «د. عدلي»! ما الذي...؟

قاطعه الرجل في لوعة:

– مجهول! ! ألا يدلني أحدكم إلى مجهول؟! ألا ينقذني أحدكم؟! مجهول..

واستدار عائدا من حيث أتى، في حين تبادل رقم «10» نظرات خاوية مع بقية الحضور، وقال في رهبة:

– «د. عدلي سليمان».. أحد أشهر علمائنا الأكاديميين.. إنها النهاية يا سادة.. نهايتنا، ونهاية الحضارة!

دفن رقم «7» وجهه بين كفيه:

– مستحيل! مستحيل أن تأتي النهاية بهذه الصورة!

وتابع في أمل:

– لكن كيف تنتهي الحضارة؟ سوف تجرف هذه الموجة الجميع.. فينتحر من ينتحر، ويُجن من يُجن، ويموت من يموت، وسط الهوجاء والغوغاء التي تنتاب الشوارع.. ثم يعود السكون.. صحيح أن الأرض ستكون قد فقدت معظم سكانها، لكن الأطفال سوف يبقون، ربما لأن عقولهم لم تستوعب بعد حجم المشكلة.. الجهلة الذين لا يعون شيئا سوف يبقون، وسوف تعاود الحضارة صعودها.

غمغم رقم «10» في حزن:

– هل فكرت يوما في رد فعل الإنسان البدائي إزاء التكنولوجيا؟ ما إن يعم الوباء الجميع ويضع غمامته حول عقولهم ويفقدهم القدرة على فهم التكنولوجيا من حولهم حتى يقوموا بالمرحلة الأولى.. الخوف والتقديس،

سوف يهابون التكنولوجيا بكل صورها.. الروبوتيات.. الأسلحة الحديثة.. وسائل المواصلات.. ثم تأتي مرحلة الاستكشاف ومحاولة سبر أغوار هذه الأشياء.. وبعدها تأتي المرحلة الأكثر خطورة.. العنف! فشلهم في معرفة كنه هذه الأشياء سوف يجعلهم يلجأون للعنف.. والآن تعالَ معي نتخيل أحد هؤلاء البدائيين – من يدري؟ ربما يكون أنا، أنت، أو أي شخص – وهو يعبث بوحدة التحكم في مخزوننا النووي، أو مسار مجموعة الأقمار المكونة لغلاف ديسون حول الشمس، أو.. أو...

إما عاجلا وإما آجلا، سوف يقدم أحدهم على فعل ما لا تُحمد عقباه، وتنتهي الحضارة كما نعرفها وربما الأرض بأكملها!

ساد الحجرة صمت رهيب، وغرق كل واحد منهم في لجة من أفكاره.. وفي الخارج، كانت صرخات العامة وهم يهرولون في الشوارع والذعر.. الذعر الحيواني يتلاعب بملامحهم.

فجأة هبَّ رقم «9» من مقعده صارخا:

– لا! لا!

وأخذ يقفز في فضاء الحجرة مرارا، وبدا وكأنه يحاذر أن تلمس قدماه الأرض:

– أرجوكم.. سوف أسقط! سأسقط!

وسقط أرضا بغتة، وعلى ملامحه ذعر وألم شديدان.. اتجه إليه رقم «10» وانحنى عليه لحظة، ثم رفع عينيه قائلا في أسف:

– لقد مات! مات بسكتة قلبية من شدة الخوف!

وتابع في حزن:

– إنها النهاية!

لكن أحدا لم يكن يلتفت إليه أو يسمعه.. كان رقم «3» جالسا على مقعده يتسلى بتمزيق ساعده بآلة حادة صغيرة.. مستحيل! لقد حجب عقله الباطن خبرات الألم.. والوعي!

وسقط رقم «1» في غيبوبة عميقة.. يا إلهي الرحيم! لقد جُن الجميع!

توقف رقم «10» لاهثا.. لقد خلت القاعة، وربما العالم كله من العقلاء!

لم يعد باقيا سواه! هو فقط!

فقط!!

تحرك في بطء نحو النافذة التي تطل على الشارع.. أطل برأسه عبرها.. الرؤية من هذا الارتفاع الشاهق تتيح له مشهدا بانوراميا واسعا.. الناس يتدافعون في الشوارع والعدوانية على وجوههم.. رأى أحدهم يمزق زميله بيديه العاريتين، في حين عمد الآخر إلى تدمير كل وسائل التكنولوجيا من حوله!

لقد جُن الجميع.. لكنه ليس كالجميع.. هو من استوعب تفاصيل الحقيقة من البداية.. هو الوحيد القادر على المواصلة!

سيواصل البحث عن المجهول، هذا وحده كافٍ كي يحتفظ بعقله ووعيه.

ولكن ما هذا؟!

كانت النافذة التي أمامه تطل على مشهد غريب بعض الشيء..

كانت تفضي إلى باب أبيض موارَب قليلا، كاشفا عن فرجة صغيرة مظلمة!

لكن هذا مستحيل علميا.. باب معلق في الفضاء؟!

شعر بمرارة في حلقه.. هل بدأت حواسه تخدعه؟ هل..؟!

وقف على إفريز النافذة، ومد يده يلمس الباب، ولدهشته الشديدة تحسست أطراف أصابعه حافة الباب..

إنه ليس وهما!

إنه المجهول الذي أراده.. المجهول الذي أجهد عقله وحواسه بالبحث عنه طوال الوقت..

مدّ قدمه وبدأ يخطو نحو الباب الموارب، المعلق في الهواء..

الباب المفضي إلى المجهول!

* * *



اليقين

تنحنح «د. جلال سعيد» قليلا ليخفي نبرة التوتر في صوته، وسط هذا الحشد من البشر الذين تباينت ملامحهم وملابسهم؛ فمنهم من يرتدي ثيابا مدنية، ومنهم من يرتدي أخرى عسكرية.

ثم قال:

- أيها السادة.. أرجو أن تصغوا إليَّ جيدا، فما سأقوله بعد لحظات سيكون من الأهمية إلى الدرجة التي تبرر جميع الإجراءات التي اتخذناها لضمان سرية هذا الاجتماع.

أولا: أود أن أشكركم جميعا على حضوركم السريع، لقد دعوتكم فلبيتم دون إبطاء على الرغم من تأخر الوقت.

والآن سوف ندخل في الموضوع مباشرة..

وارتفع صوته في حماس:

- أيها السادة.. أرجو أن ترحبوا معي بـ«وائل».. مشروعنا الأكثر طموحا خلال ربع قرن من الزمان!

ومع إشارة من يده سقطت دائرة من الضوء على شخص يقف صامتا في

جانب المسرح.

كان «وائل» شابا في أواخر العقد الثالث من العمر، ذا ملامح جامدة ونظرات ثاقبة، يرتدي بذلة كاملة، ويقف صامتا بلا حراك.

– ما ترونه أمامكم الآن هو «وائل».. أول إنسان آلي مزود بملكة الذكاء الصناعي!

صاح أحد العلماء في الصف الأول:

– روبوت مزود بذكاء صناعي؟! وماذا في هذا؟ إن الروبوت اختراع قديم عفى عليه الزمن، والذكاء الصناعي قد مر على استنباطه لأول مرة أكثر من نصف قرن من الزمان.. فما الجديد في مشروعك هذا؟

رد «د. جلال»:

– الأمر ليس بمثل هذه البساطة.. إننا عندما بدأنا مشروعنا هذا لم نعمد إلى منح «وائل» هبة الذكاء الصناعي دفعة واحدة.. وإنما عملنا على منحه آلية عمل هذا الذكاء فقط.. اللبنة الأولى التي يعمل عليها، بالكاد ذكاء طفل بشري في الخامسة، ثم إنه أول روبوت مزود برقاقات حيوية تمنحه الشكل البشري والتفاعلات الحيوية التي تميز البشر، كما أننا زودناه بآلة احتراق داخلي ليعتمد على الكربوهيدرات والبروتينات في توليد الطاقة الكافية لمولداته الإلكترونية.. ثم ماذا بعد؟!

لقد أطلقناه إلى الحياة العامة، واعتمدنا على شكله البشري وتفاعلاته البشرية المحدودة لينخرط بين الناس دون أن يجذب الانتباه إليه أو حتى يعرف حقيقته الآلية أو الدافع وراء وجوده.. مجرد بشري آخر وسط معترك الحياة.. كان هدفنا الرئيسي هو جعله ينمِّي مهاراته العقلية بنفسه دون برنامج معد مسبقا، وراقبناه عن كثب دون أن نتدخل إلا قليلا.. فقد كنا نختطفه من آن لآخر ونغير من هيئته الخارجية لتتماشى مع تقدمه في العمر!

وطفقنا ننتظر في صبر..

لقد بدأ حياته مع أطفال الشوارع.. مجرد طفل متشرد يسعى جاهدا للعيش وسط عالم الكبار، ثم تم إيداعه أعواما قليلة داخل أحد سجون الأحداث بتهمة النشل، وبعد أن خرج تبنته أسرة متوسطة دون أن يعرفوا هويته الحقيقية..

ووسط هذه الأسرة تعلَّم «وائل» معاني جديدة للحياة.. التحق فيما بعد بكلية الطب لكنه لم يستمر فيها، ثم عمل محررا لصفحة الحوادث في جريدة يومية مغمورة، لكن ذلك العمل لم يستهوه كثيرا وإنما قبله على مضض ليسد احتياجات والديه بالتبني من الطعام والدواء، وبعد وفاتهما في حادث سيارة، ترك عمله هذا، وبدأ يجوب الشوارع والطرقات ليمارس

هوايته التي طالما أحبها كثيرا.. الرسم.

وأردف:

- أرجو ألا يصاب أحدكم بالذهول عندما يعرف أن لوحة «مشاهد من يوم القيامة» التي هزت الأوساط الفنية من شهور قليلة هي من إبداعاته الخاصة..

ثم - وبعد مرور ربع قرن - وضعنا نقطة النهاية في تجربتنا، وصارحناه بحقيقته والدافع وراء وجوده..

إنه لم يستوعب الحقيقة دفعة واحدة، وإنما ثار وصرخ، مؤكدا أنه بشري مثلنا، ثم لم يلبث أن اقتنع بالدليل العملي.

وتنهد «د. جلال»:

- وها نحن الآن مع «وائل».. أول روبوت مزود بملكة الذكاء الصناعي، التي طورها بنفسه خلال ربع قرن من الزمان والاحتكاك بالبشر..

واعتدل في وقفته:

- إننا هنا لنلقي عليه عددا من الأسئلة، لنرى وجهة نظره فيها.. وجهة نظر روبوت ذكي.. أول روبوت ذكي في التاريخ، والمقصود هنا ليس الذكاء الذي منحناه إياه، وإنما الذكاء الذي طوره بنفسه!

ارتفع صوت أحد العسكريين يسأله في شك:

– «وائل».. هل أنت واع لوجودك؟

أجابه في هدوء:

– بالتأكيد يا سيدي.. أنا روبوت آلي مزود بالذكاء الصناعي.

– رائع!

سأله آخر:

– «وائل».. ما رأيك في كل ما توصلنا إليه من حضارة.. تلك الحضارة التي جعلتنا أسيادا في هذا الكون؟

صمت لحظة ثم رد في خشوع غريب:

– رأيي أن المصنوع يدل على الصانع.. ووجود هذا الكون الهائل يدل على وجود خالق.

– خالق؟!

والتفت إلى «د. جلال»:

– أهذا ما جئتنا به بعد تجربة علمية مثيرة استمرت ما يقرب من ربع قرن من الزمان.. تجديف ونقد للتفوق البشري؟!

نهض عالِم آخر تبدو عليه مخايل الحكمة والتفت إلى «وائل»:

– يا عزيزي.. إن الإنسان هو الكيان الوحيد الواعي بين كل هذه الظواهر الكونية العشوائية المتضاربة.. قبل الإنسان لا شيء.. بعد الإنسان لا شيء!

قال «وائل» في حيرة:

– كيف تتكلم بكل هذه الثقة عن شيء لا تستوعب جوانبه، أو حتى تُلم بخباياه؟ فهل يستطيع الإنسان أن يحيط بالأبدية وهو عاجز عن الإحاطة بذاته التي بين جنبيه؟!

وإذا كانت تلك الظواهر عشوائية كما تقول، فكيف تفسر نشوءنا على هذه الأرض؟ بل كيف تفسر النظام والدقة اللذين تُسيران عمارة الكون؟ أليس هذا أدعى للتفكير – ولو للحظة – بأن هذا الكون له خالق واحد؟!

قال العالم بأسف وإشفاق:

– إني أجد نفسي منساقا إلى هذه المحاورة السوفسطائية العقيمة، لكنني سأحاول إقناعك بالحقيقة التي غابت عن دوائرك الإلكترونية.. تلك الحقيقة التي تقول إن عمرنا – كجنس بشري – على الأرض لا يتجاوز المليون عام، في حين أن عمر الكون هو خمس عشرة ألف مليون عام، وهي – كما ترى – فترة كافية جدا لملايين التباديل والتوافيق بين مكوناته؛ لينتج في النهاية الخلية الأولى التي منها نشأ الإنسان الأول.. شيء أشبه بالقرد الذي

تضعه على الآلة الكاتبة يعبث بها؛ لينتج بعد ملايين المحاولات قصيدة لطاغور!

وأردف:

– إن ما أنفقت فيه الطبيعة ملايين السنين لتحقيقه، استطعنا نحن تحقيقه في سنوات قليلة.

وأشار بيده:

– لعلك سمعت عن تجربة العالمين «يوري» و«ميللر» عندما قاما بتخليق البروتوبلازما الحية في المعمل من مواد ميتة!

صاح «وائل»:

– هذا تجديف وجحود للخالق – عز وجل – فإذا كان الإنسان هو الوعي الوحيد في هذا الكون، والطبيعة مجرد عامل أخرق استطاع – بعد لأي – أن ينتج شيئاً ذا معنى، فمن الذي وضع الطبيعة من الأساس؟! من الذي وضع الوجود من العدم؟!

هل الإنسان الذي عجز عن التواصل مع أخيه الإنسان، وأغرق نفسه لسنوات طويلة في حروب طائفية وقبلية، قادر على الإحاطة بنواميس الكون؟!

– هذا إفراز طبيعي للاختلافات الفسيولوجية بين العقول البشرية،

وهذا الاختلاف له ما يبرره في الواقع؛ فالإنسان يحمل على عاتقه نقض كل تلك الأمور الكونية..

يقبلها أو يرفضها.. يعاينها تحت عدسة الميكروسكوب.. يُشرحها بمبضعه.. يفندها!

وصمت لحظة قبل أن يردف بأريحية علمية:

- الحق أقول: إننا نتحكم في حياتنا، ونسيطر على معطيات عالمنا بمهارة تستحق التقدير!

ضجت القاعة بالتصفيق وصيحات الإعجاب، في حين واجههم «وائل» بجسده كله:

- إذا كان الأمر كذلك، فكيف لك أن تفسر كل تلك الجهامة التي تعتريكم، بعد أن قمتم بتأليه أنفسكم؟

أشار العالم بسبابته:

- هو سؤال جيد.. إن الأمر يكمن في مقدار المسئولية التي نحملها على عاتقنا طوال الوقت.. مسئولية كون بأكمله علينا أن نُسيره بحكمتنا الرائعة..

نكس «وائل» رأسه في يأس من أولئك الذين ملأ الكبر عقولهم ونفوسهم فحملهم على إنكار وجود الخالق.

وارتعدت دوائره الإلكترونية في خوف حقيقي..

ارتفع صوت «د. جلال» في أسف:

- يبدو أن مشروعنا الأكثر طموحا قد مُني بالفشل.

وصوَّب مسدسا إشعاعيا نحو «وائل» متابعا:

- وفي هذه الحالة، لا سبيل أبدا لأنصاف الحلول.

وضغط زناد المسدس في قوة.

وصمت «وائل»، وطال صمته.. وفي اللحظة التالية وقبل أن تتوقف دوائره عن العمل إلى الأبد، خُيل للجميع أن ملامحه قد تهدجت..

وحيدا في عالم من الكفر والإلحاد والآلية..

عالم تنكر لوجود الخالق - عز وجل.

كان «وائل» مجرد روبوت صغير خائف..

وكان هو الوحيد الذي آمن بوجود الله.

* * *

الفهرس



الحكمة الضائعة

" كان الناس في الشوارع يتعاركون بالأيادي ويصرخون في حيوانية مخيفة ..

كان أحدهم يهاجم سيارة مسرعة ، بينما آخر يقتل رفيقه بدم بارد .. وثالث يلقي نفسه من فوق بناية عالية ..

هل هذه هي ضريبة المعرفة ؟ .

هل هذا ما خاف علينا منه القدماء ؟! " .

د. إبراهيم المغاوري

